رواية
حياة التجوال
غي دي موباسان
ترجمة:
الأمجد العثماني
كتوباتي
kotobati

حياة التجوال

جولة عبر المتوسط

إيطاليا، صقلية، الجزائر، تونس

غي دي موباسان

ترجمــة:

الأمجد العثماني

الكتـــــــــــاب : حياة التّجوال.. جولة عبر المتوسط

العنوان الأصلـــي : La vie errante

تألـــــــــــيف : غي دي موباسان Guy de Maupassant

تعريـــب وترجمــة : الأمجد العثماني

النوعيـــــــــة : رواية

النسخة المرجعيــة : باريس، بول أوليندورف، الناشر، 1890م

صدر عن كتوباتي : 2024م

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.

وكل الحقوق محفوظة لدى المترجم.

الفهرس

مقدمة 4
1 ضجر 9
2 الليل 18
3 الساحل الإيطالي 34
4 صقلية 61
5 من الجزائر العاصمة إلى تونس العاصمة 136
6 تونس العاصمة 150
7 نحو القيروان 179

مقدمة

في بعض الأحيان قد يجد المترجمون صعوبة في ترجمة بعض الكلمات أو العبارات بشكل دقيق بسبب الاختلافات الثقافية أو عدم وجود مقابل مباشر في اللغة المستهدفة. في هذه الحالات، قد يختار المترجمون استخدام تقنيات مثل التعميم، أو التفسير، أو حتى تجاهل بعض العناصر إذا كانت لا تؤثر على المعنى العام للنص. ومع ذلك، يحاول المترجمون دائمًا نقل المعنى بأكبر قدر ممكن من الدقة والوضوح.

في الترجمة أيضا يمكن اعتماد عنوان آخر للكتاب إذا كان العنوان الأصلي يحتمل عدة ترجمات أو إذا كان العنوان المباشر لا ينقل الدلالات المقصودة بشكل كافٍ في اللغة المستهدفة. المهم هو أن يحافظ العنوان الجديد على روح وجوهر العمل الأصلي قدر الإمكان والعنوان La vie errante يحتمل ترجمات عديدة منها الحياة الضالة والحياة المتشردة وحياة التجوال أو السفر ولذلك اخترت جولة عبر المتوسط فالرواية عبارة عن قرف الكاتب من طقس باريس ومله من برج إيفل وما فيها من معالم ومغامرته في رحلة بحرية عبر البحر الأبيض المتوسط مرورا بإيطاليا وصقلية فالجزائر ثم تونس

العاصمة وصولا إلى مدينتي القيروان وسوسه في رحلة استطلاعية، استكشافية، ثقافية ثرية للعقل والروح ونشر محتواها ثلاثة سنوات قبل وفاته أي عام 1890 م.

في موقع "انديبندانت عربية" يكتب الكاتب والباحث ابراهيم العريس:" يعرف الكاتب الفرنسي غي دي موباسان عادة بأنه واحد من كبار كتاب القصة القصيرة في بلده خلال القرن التاسع عشر، بل يكاد يكون الأشهر بين كتاب القصة القصيرة لدى القراء والمثقفين العرب لكونه قد تُرجم إلى العربية باكراً، وتأثر به و بواقعيته كثر من كتاب لغة الضاد. و إلى هذا عرف دي موباسان خصوصاً بقصته متوسطة الطول "بول دي سويف" التي اقتبست للسينما مرات عديدة، منها ذلك الاقتباس الشهير الذي حققه السوفياتي ميخائيل روم. كما أن لدى موباسان روايات طويلة قد لا يقل معظمها شهرة عن قصصه القصيرة، ومنها طبعاً "بيل آمي" التي نقلت إلى الشاشة الكبيرة مرات عديدة. غير أن ما هو معروف أقل من ذلك كله من بين أعمال هذا الكاتب الذي تتلمذ بشكل أو بآخر، على غوستاف فلوبير صاحب "مدام بوفاري" الذي كان صديقاً لعمه، هو أنه قد خاض بدوره في أدب الرحلات و إن لم يكن بكثافة تضاهي كثافة ما أنتجه فلوبير في هذا المجال. ومن هنا

كان مفاجئاً أن يعود إلى الظهور في فرنسا قبل عقود من الآن وبعد أكثر من نصف قرن على رحيل الكاتب، مؤلف له عنوانه "حياة التجوال". وكان من المفاجئ أكثر أن يضم الكتاب نصوصاً كان دي موباسان قد نشرها أصلاً في عام 1890 حول جولات قام بها خلال فترات متعاقبة في مناطق الشمال الأفريقي متنقلاً بين تونس والمغرب والجزائر...

...وقد كان لدي موباسان رحلتان متتاليتان عامي 1887 و1888 إلى الشمال الأفريقي أيضاً ولكن في شقيه الآخرين، المغرب وتونس وقد بات الآن كاتباً معروفاً ومعترفاً به يستقبل بالترحاب. وهو قام بهاتين الرحلتين هرباً من البرودة والرطوبة في موطنه الباريسي كما يقول. ويصل إلى الجزائر العاصمة أولاً هذه المرة بعد أن مر بسراغوسا في صقلية، ومن ثم ينطلق منها شرقاً وغرباً. في هاتين الزيارتين لم يكن دي موباسان مكلفاً من أحد ولم يكن عليه أن يكتب أية مقالات صحافية. صحيح أنه كتب وكتب كثيراً وبشكل يومي على الأرجح لكنه كان يكتب لنفسه ويدون مشاهداته ورصده لحياة البشر ولكل ما يلفت نظره من مشاهد وأحداث، لكنه كان يرصد ويتأمل ويفكر فقط أول الأمر، ولعل أفكاره الأساسية راحت تنصب على الجمال الذي رصده في الصروح التي تعبر، كما رأى بحسب ما تفيدنا محررة كتاب

"تجوال تونسي" عن نقاء عالم الإسلام، حيث كان يكفيه لذلك أن يتأمل في "مسجد مدينة الجزائر الأبيض" ثم لاحقاً في مسجد القيروان ومركزها العلمي. واللافت أن المقارنة القلمية التي أقامها بين الصرحين مكنته من أن يكتب نصوصاً بالغة الجمال والدقة لعالم الإسلام".

وقد كتب عن ضريح الصحابي الجليل سيدي الصاحب كما يسميه أهل القيروان: " وهذا المسجد يختلف تماماً عن الجامع الكبير الذي غادرناه للتو، فهو ليس مهيباً بأي حال من الأحوال، ولكنه أكثر المساجد التي رأيتها جمالاً وأكثرها ألواناً وسحراً، وأكمل مثال للفن الزخرفي العربي الذي رأيته في حياتي. يؤدي الدرج ذو التصميم المبهج المصنوع من الأواني الفخارية العتيقة إلى قاعة مدخل صغيرة مرصوفة ومزخرفة بنفس الطريقة. ويتبع ذلك فناء طويل وضيق محاط بدير ذي أقواس على شكل حدوة حصان ترتكز على أعمدة رومانية. عندما تدخل في يوم مشرق، ستبهرك الشمس المنسدلة في غطاء ذهبي على جميع الجدران المغطاة أيضاً ببلاط خزفي بألوان رائعة وتنوع لا نهائي. كما أن الفناء المربع الكبير الذي ستصل إليه بعد ذلك متغير اللون بالكامل. يتلألأ الضوء ويتدفق بالنار في هذا القصر الطلاء الزجاجي الهائل حيث تضيء كل تصاميم وألوان الخزف الشرقي بلهيب السماء

الصحراوية. وفوقها تتجول خيالات الأرابيسك الرقيقة التي لا يمكن وصفها. في هذا الفناء المسحور يفتح الباب إلى الحرم الذي يحتوي على قبر سيدي الصاحب، رفيق النبي وحلاقه الذي كان يحتفظ بصدره بثلاث شعرات من لحيته حتى وفاته".

الأمجد العثماني

1

ضجر

لقد تركت باريس، بل وحتى فرنسا، لأن برج إيفل أصابني بالملل الشديد ليس فقط لأنك لا تراه من كل مكان، بل لأنك تجده في كل مكان، مصنوعًا من كل المواد المعروفة، مكشوفًا في كل نافذة، كابوسًا لا مفر منه، كابوسًا معذبًا .

لم تكن هي وحدها، علاوة على ذلك، هي التي جعلتني أرغب في العيش وحدي لفترة، بل كل ما كان يتم حولها، فيها، وعليها .

كيف تتجرأ كل الصحف على الحديث عن العمارة الجديدة فيما يتعلق بهذه الجثة المعدنية، لأن العمارة، وهي أكثر الفنون التي يساء فهمها ونسيانها اليوم، ربما تكون أيضًا الأكثر جمالية والأكثر غموضًا وتغذية. من الأفكار؟

لقد كان لها على مر القرون امتياز أن ترمز، إذا جاز التعبير، إلى كل عصر، وأن تلخص، في عدد قليل جداً من الآثار النموذجية، طريقة تفكير وشعور وحلم جنس وحضارة ما .

فبضعة معابد وبضعة كنائس، وبضعة قصور وبضعة قلاع تحتوي بشكل أو بآخر على تاريخ الفن في العالم كله، وتعبر لنا أفضل من الكتب، من خلال تناسق الخطوط وسحر الزخرفة، عن كل ما كان لعصر من العصور من عظمة وروعة .

ولكني أتساءل عما يمكن أن نستخلصه من جيلنا إذا لم تقم بعض أعمال الشغب في المستقبل بتفكيك هذا الهرم الطويل النحيل من السلالم الحديدية، وهو هيكل عظمي ضخم غير متناسق تبدو قاعدته مصممة لدعم نصب تذكاري هائل لسايكلوبس، وينتهي به الأمر إلى شكل مضحك ورقيق لمدخنة مصنع.

يقولون إنها مشكلة تم حلها. فليكن - ولكن لا فائدة من ذلك! - أفضل أن أبدأ من جديد بالمحاولة الساذجة لبرج بابل، التي قام بها مهندسو برج الكامبانيل في بيزا في القرن الثاني عشر .

كانت فكرة بناء هذا البرج اللطيف المكون من ثمانية طوابق من الأعمدة الرخامية، المائل كما لو كان سيسقط دائماً، ليثبتوا للأجيال القادمة المذهولة أن مركز الجاذبية مجرد تحيز هندسي لا فائدة منه وأن الآثار يمكن الاستغناء عنها، لكنها يمكن أن تكون ساحرة في كل الأحوال، وبعد سبعة قرون تجتذب من الزوار المندهشين أكثر مما سيجذب برج إيفل بعد سبعة أشهر، وهي بالتأكيد مشكلة أكثر أصالة من مشكلة هذا المرجل العملاق، المرسوم للعيون الهندية.

أعلم أن هناك رواية أخرى تقول أن الجرس يميل من تلقاء نفسه. ولكن من يدري؟ فالنصب التذكاري الجميل يحافظ على سره الذي لطالما نوقش ولا يمكن اختراقه .

أنا لا أهتم حقاً ببرج إيفل. لقد كان مجرد منارة لمعرض دولي، إذا استعملنا التعبير القديم الذي ستظل ذكراه تطاردني كالكابوس، كالرؤية المحققة للمشهد الرهيب الذي يمكن أن يقدمه حشد من الناس الذين يستمتعون بأنفسهم لرجل مشمئز .

لقد كنت حريصاً على ألا أنتقد هذا المشروع السياسي الهائل، المعرض العالمي الذي أظهر للعالم، في الوقت الذي كان يجب أن يظهر فيه، قوة هذا البلد المدهش: فرنسا، وحيويته ونشاطه وثروته التي لا تنضب.

لقد قدمنا متعة كبيرة ومتعة عظيمة ومثالاً رائعًا للشعب وللبرجوازية. لقد استمتعوا بكل إخلاص. لقد أبلينا بلاءً حسنًا وأبلوا بلاءً حسنًا .

لقد أدركت منذ اليوم الأول فقط أنني لم أخلق لمثل هذه المتع .

وبعد أن زرت بإعجاب شديد معرض الآلات والاكتشافات الرائعة للعلم الحديث والميكانيكا والفيزياء والكيمياء؛ وبعد أن لاحظت أن الرقص الشرقي لا يلهي إلا في البلاد التي تلوح فيها البطون العارية، وأن الرقصات العربية الأخرى لا سحر لها ولا لون إلا في قصور الجزائر التسع البيضاء، قلت في نفسي إن الذهاب إلى هناك من وقت لآخر سيكون في النهاية أمراً متعباً ولكنه يلهي عن شيء يمكن للمرء أن يستريح منه في مكان آخر، في البيت أو مع أصدقائه.

ولكنني لم أفكر كيف ستكون باريس، وقد غزاها العالم كله .

فمنذ طلوع الفجر، كانت الشوارع ممتلئة، والأرصفة ممتلئة بالحشود كالسيول المتلاطمة .

كانوا جميعاً متجهين نحو المعرض، أو قادمين منه، أو عائدين إليه. السيارات تصطف على الأرصفة مثل عربات قطار لا نهاية له. لا توجد عربة واحدة خالية من السيارات، ولا يوجد حوذي واحد يوافق على أن يأخذك إلى أي مكان إلا إلى المعرض، أو إلى بيته الذي يستقله .

لا أحد ينقطع عند الدوائر. ولا مائدة في المطاعم، ولا صديق يقبل أن يتعشى في بيته أو يوافق على أن يتعشى في بيتك .

و إذا دعيت إليه يقبل بشرط أن نقيم مأدبة على برج إيفل. إنه أكثر متعة. وكلهم يدعوك إلى هناك كل يوم من أيام الأسبوع، إما على الغداء أو العشاء، وكأنما بأمر منك، فيدعوهم جميعاً.

في هذا الحر، في هذا الغبار، في هذه الرائحة النتنة، في هذا الزحام من الناس وهم يتدافعون ويتصببون عرقاً، في هذه الأوراق الدهنية الملقاة والمتناثرة في كل مكان، في هذه الرائحة من اللحوم الباردة والخمر المسكوبة على المقاعد، وفي أنفاس ثلاثمائة ألف فم ينفثون رائحة طعامهم، وفي هذا

التزاحم والتراشق، وفي هذا التشابك بين كل هذه الأجساد الساخنة، وفي هذا العرق الذي يتصبب من كل هؤلاء الناس الذين ينثرون براغيثهم على المقاعد وعلى طول الطرقات، لقد وجدت أنه من المشروع تماماً أن أذهب وأتناول مرة أو مرتين، باشمئزاز وفضول، طعام مقصف عمال المطارات في مقصف شركة الطيران، ولكني وجدت من المدهش أن نتمكن من تناول الطعام، كل مساء، في هذه القذارة وفي هذا الرعاع، كما كان يفعل المجتمع الطيب، المجتمع الرقيق، مجتمع الصفوة، المجتمع الراقي المهذب، المجتمع الراقي المصقول الذي، كقاعدة، يتقزز من الناس الذين يكدحون ويشعرون بالتعب الإنساني .

وهذا يثبت مرة واحدة و إلى الأبد الانتصار الكامل للديمقراطية .

لم يعد هناك طبقات أو أجناس أو أعراق أو بشرة الأرستقراطيين. لا يوجد الآن سوى الأغنياء والفقراء. ولا يمكن لأي تصنيف آخر أن يفرق بين درجات المجتمع المعاصر .

وهناك نوع آخر من الأرستقراطية آخذ في النشوء، أرستقراطية من نوع آخر انتصرت بالإجماع في هذا المعرض العالمي: أرستقراطية العلم، أو بالأحرى أرستقراطية الصناعة العلمية .

أما الفنون فهي آخذة في الاختفاء: إن الإحساس بها يتلاشى من نخبة الأمة التي كانت تنظر دون احتجاج إلى الزخرفة المرعبة للقبة المركزية وبعض المباني المجاورة .

إن الذوق الإيطالي الحديث آخذ في الانتشار، والعدوى قد انتقلت إلى الزوايا المخصصة للفنانين في هذا البازار الشعبي والبرجوازي العظيم الذي أغلق لتوه وقد أخذت هذه الزوايا أيضاً مظهر الإعلانات وعروض المعارض .

وما كنت لأحتج مطلقاً على ظهور العلماء العلميين وسيطرتهم على الساحة لو لم تجبرني طبيعة عملهم واكتشافاتهم على ملاحظة أنهم قبل كل شيء علماء تجاريون.

ربما ليس هذا خطأهم. ولكن يبدو كما لو كان مسار الروح الإنسانية محصوراً بين جدارين لا يمكن اختراقهما أبداً: الصناعة والمبيعات .

في فجر الحضارة، اندفعت روح الإنسان نحو الفن. حتى لتظن أن إلهاً غيوراً قال له: "إنني أمنعك من التفكير في هذه الأشياء بعد الآن" .

ولكن فكر فقط في حياتك كحيوان وسأدعك تكتشف الكثير من الاكتشافات .

أما اليوم، فيبدو أن العاطفة الجذابة والقوية التي كانت سائدة في القرون الفنية قد تلاشت، بينما تستيقظ عقول من طراز مختلف تماماً، فتخترع آلات من كل الأنواع، وأجهزة مدهشة، وميكانيكا معقدة تعقيد الأجسام الحية، أو تجمع بين المواد للحصول على نتائج مذهلة ومثيرة للإعجاب .

كل ذلك لخدمة احتياجات الإنسان المادية، أو لقتله .

ويبدو لنا أن التصورات المثالية، وكذلك العلم الخالص والمجرد الذي كان عليه جاليليو ونيوتن وباسكال يبدو لنا أنه ممنوع في حين أن خيالنا يبدو أكثر فأكثر متحمساً للرغبة في التأمل في الاكتشافات المفيدة للوجود .

ألا يبدو أن عبقرية الرجل الذي انتقل بقفزة واحدة من ذهنه من سقوط تفاحة إلى القانون العظيم الذي يحكم العالمين، قد ولدت من بذرة إلهية أكثر من العقل الثاقب للمخترع الأمريكي صانع الأجراس العجيبة ومكبرات الصوت والأجهزة المضيئة؟

أليست هذه هي الرذيلة السرية للنفس الحديثة، وعلامة دونيتها في انتصارها؟

ربما أكون مخطئًا تمامًا. على أي حال، إن هذه الأشياء التي تهمنا لا تفتننا مثل أشكال الفكر القديمة، نحن العبيد المتهيجين لحلم الجمال الرقيق الذي يطاردنا ويفسد حياتنا .

لقد شعرت أنه سيكون من دواعي سروري أن أرى فلورنسا مرة أخرى، وغادرت.

2

الليل

عندما غادرنا الميناء كان في الساعة الثالثة صباحا، كنا لا نزال قادرين على التقاط بقايا النسمات الخفيفة التي تزفرها الخلجان نحو البحر أثناء الليل. ثم هبّ نسيم خفيف من البحر المفتوح، فدفع اليخت المغطى بالقماش نحو الساحل الإيطالي .

كان قارباً يزن عشرين طناً، أبيض بالكامل، مع خيط ذهبي غير محسوس يدور حوله كحبل رفيع على جانب البجعة. تبدو أشرعته المصنوعة من قماش جديد ناعم، وكأنها أجنحة حريرية فضية منتشرة في السماء الزرقاء تحت شمس أغسطس التي تلقي لهيباً على الماء. تتطاير أشرعتها الثلاثة إلى الأمام، مثلثات خفيفة مستديرة بأنفاس الرياح، والشراع الأمامي الرئيسي مرتخي تحت الشراع الأمامي الحاد الذي يرتفع ثمانية عشر متراً فوق الأفق، فوق سطح السفينة، تلمع أطرافه في السماء .

يبدو أن الشراع الأخير في الخلف، وهو الشراع الرئيسي نائم .

وسرعان ما يغفو الجميع على سطح السفينة. إنها ظهيرة صيف على البحر الأبيض المتوسط. هدأ النسيم الأخير. والشمس الحارقة تملأ السماء وتحول البحر إلى ملاءة ناعمة مزرقة، لا حراك فيها ولا رعشة، نائمون أيضاً تحت وميض من الضباب الذي يبدو وكأنه عرق الماء .

على الرغم من الخيام التي نصبتها كمأوى لي، كان الجو حاراً جداً تحت القماش لدرجة أنني نزلت إلى غرفة المعيشة لألقي بنفسي على أريكة .

لا يزال الجو بارداً في الداخل. القارب عميق، صُمّم للإبحار في البحار الشمالية وتحمّل الطقس القاسي. يمكن لستة أو سبعة أشخاص، الطاقم والركاب، العيش في هذا المنزل العائم الصغير، الضيق بعض الشيء، ويمكننا أن نجلس ثمانية ضيوف حول الطاولة في الصالون .

أما المقصورة الداخلية فهي من خشب الصنوبر الشمالي المطلي بالورنيش، مع إطارات من خشب الساج، مضاءة بنحاس الأقفال والتجهيزات والثريات، وكلها من النحاس الأصفر المبهج الذي هو من رفاهية اليخوت .

كم هو غريب هذا التغيير، بعد صخب باريس! لا يمكنني سماع أي شيء، لا شيء. من ربع إلى ربع، البحار الذي يغفو عند الدفة يسعل ويبصق. وتصدر الساعة الصغيرة المعلقة على الحاجز الخشبي ضجيجاً يبدو هائلاً في صمت السماء والبحر .

وهذا الإيقاع الضئيل وحده، الذي يزعج السكون الهائل للعناصر، يمنحني فجأة إحساساً مدهشاً بعزلة غير محدودة حيث تظل همهمات العوالم، المكتومة على بعد أمتار قليلة من سطوحها، غير محسوسة في الصمت الشامل !

يبدو الأمر كما لو أن شيئاً من هدوء الفضاء الأبدي ينحدر وينتشر فوق البحر الساكن في هذا اليوم الصيفي الخانق. إنه شعور غامر لا يقاوم، مخدّر، مبيد، مثل لمسة الفراغ اللانهائي. تفشل كل الإرادة، وتتوقف كل الأفكار، ويستولي النوم على الجسد والروح .

كان الوقت مساءً عندما استيقظت. كانت هناك بضع نفخة من نسيم الشفق، غير متوقعة على الإطلاق، دفعتنا إلى الأمام حتى غروب الشمس. كنا قريبين إلى حد ما من الساحل، مقابل بلدة سان ريمو، دون أمل في الوصول إليها .

وبدت القرى الأخرى والبلدات الصغيرة، المنتشرة على سفح الجبال الرمادية العالية، مثل أكوام من الكتان الأبيض المعلقة على الشواطئ لتجف .

كان هناك بعض الضباب يتصاعد من منحدرات جبال الألب، يحجب الوديان وهي تزحف نحو القمم، هذه التي رسمت خطاً هائلاً متعرجاً على سماء وردية وأرجوانية. وأرخى الليل سدوله علينا، واختفى الجبل، وأوقدت النيران على مستوى الماء على طول الساحل العظيم .

وكانت رائحة الطبخ الطيبة تنبعث من داخل اليخت، وتختلط بشكل مبهج برائحة هواء البحر الطيبة والنظيفة .

بعد العشاء، تمددت على سطح اليخت .

كان ذلك اليوم الهادئ العائم قد نظف ذهني كما تنظف الإسفنج على نافذة ملطخة؛ وتدفقت الذكريات في رأسي، ذكريات الحياة التي تركتها لتوي ورائي، ذكريات الناس الذين عرفتهم ولاحظتهم وأحببتهم .

لا شيء يجعل العقل يسافر والخيال يهيم مثل ذلك، أن أكون وحدي، على الماء وتحت السماء، في ليلة دافئة. شعرت بنشوة مفرطة ونشاط، كما لو كنت قد شربت خمراً مسكراً أو تنفست أثيراً أو أحببت امرأة .

كانت برودة ليلية خفيفة تبلل جلدي بحمام غير محسوس من الضباب المالح. وكانت الرعشة اللذيذة من هذا التبريد الفاتر للهواء تجري على الأطراف، وتدخل إلى الرئتين، وتغلب على الجسم والعقل في جمودهما .

فهل أولئك الذين يتلقون أحاسيسهم عن طريق سطح جسدهم كله أسعد أو أتعس من أولئك الذين يتلقونها عن طريق أعينهم أو أفواههم أو حاسة الشم أو آذانهم؟

لعل هذه الاستثارة العصبية والمرضية للبشرة وسائر الأعضاء التي تجعل من أدنى الانطباعات الجسدية انفعالاً والتي تفرض الآلام والأحزان والأفراح بحسب حرارة النسيم ورائحة الأرض ولون النهار، هي قدرة نادرة ومخيفة.

هل من السعادة أو التعاسة ألا نستطيع أن ندخل مسرحاً لأن ملامسة الحشود تهيج الكائن الحي كله على نحو غير مفهوم؛ وألا نستطيع أن ندخل قاعة رقص لأن البهجة المبتذلة وحركة الفالس الدوارة تهيج كالإهانة؛ وأن نشعر بالكآبة إلى حد البكاء أو بالبهجة دون سبب حسب الزخرفة والتعليق وتحلل الضوء في مسكن ما، وأن نصادف أحياناً من خلال مجموعات من الإدراكات إشباعاً جسدياً لا يمكن أن يكشفه شيء لأصحاب الكائنات الفجة؟

لا أدري، ولكن إذا لم يكن الجهاز العصبي حساساً إلى حد الألم أو النشوة فإنه لا ينقل إلينا إلا ارتجاجات متوسطة و إشباعاً مبتذلاً.

كان ضباب البحر هذا يداعبني كالفرح. لقد امتد عبر السماء، وحدقت ببهجة في النجوم الملفوفة في الصوف القطني، شاحبة قليلاً في السماء المظلمة البيضاء. كان الساحل قد اختفى وراء البخار الذي كان يطفو على الماء ويغطي النجوم .

كان الأمر كما لو أن يداً خارقة للطبيعة قد عبأت العالم في غيوم قطنية ناعمة لرحلة مجهولة .

وفجأة، ومن خلال هذا الظل الثلجي، مرت فوق البحر موسيقى بعيدة من مكان لا يعرفه أحد. ظننت أن أوركسترا هوائية كانت تجول عبر الفضاء لتقدم لي حفلة موسيقية .

كانت الأصوات، خافتة ولكنها واضحة ورنانة بشكل ساحر، تحمل همهمة أوبرا عبر الليل الناعم .

تحدث صوت قريب مني .

قال بحار: اليوم هو يوم الأحد، وها هي ذي موسيقى سان ريمو تعزف في الحديقة العامة .

أصغيتُ وأنا مندهش لدرجة أنني ظننتُ أنني في حلم جميل. استمعتُ طويلاً، ببهجة لا متناهية، إلى الأغنية الليلية التي تحلق في الفضاء.

ولكن بعد ذلك، في منتصف المقطوعة، انتفخ ونما وبدا وكأنه يركض نحونا. كان التأثير رائعًا ومدهشًا لدرجة أنني وقفت لأستمع. لقد كان قادمًا بالتأكيد، أكثر وضوحًا وأعلى صوتًا كل ثانية. كان قادماً نحوي، لكن كيف؟ على أي طوف شبح كان سيظهر؟ لقد كان قادماً بسرعة، لدرجة أنني كنت أنظر في الظلال بعيون متحركة رغمًا عني، وفجأة أغرقتني أنفاس دافئة عطرة من الأعشاب البرية التي تدفقت كالفيضان مفعمة برائحة الآس والنعناع وأعشاب الليمون والخلود والعدس والخزامى والزعتر التي تلفحها شمس الصيف على الجبل.

لقد كانت الرياح تهب على الشاطئ محملة بأنفاس الساحل حاملة هذا الانسجام الهائم إلى البحر، ومزجها برائحة نباتات جبال الألب .

وبقيت ألهث وأنا مخموراً بالأحاسيس لدرجة أن ارتباك هذا التسمم جعل حواسي تهذي. لم أكن أعرف حقًا ما إذا كنت أتنفس الموسيقى، أو أسمع العطور أو أنام في النجوم .

دفعنا نسيم الزهور هذا نحو البحر المفتوح بينما كان يتبخر في الليل. ثم خفتت الموسيقى رويدًا رويدًا، ثم سكتت بينما كان القارب ينجرف بعيدًا في الضباب .

لم أستطع النوم، وتساءلت كيف كان يمكن لشاعر حداثي، من المدرسة الرمزية المزعومة، أن يصور تلك الذبذبة العصبية المشوشة التي استولت عليَّ للتو والتي تبدو لي، بلغة واضحة، غير قابلة للترجمة. من المؤكد أن بعض هؤلاء المعبرين المجتهدين عن الإحساس الفني المتعدد الأشكال كانوا سيوفون أنفسهم حقهم، فيقولون في شعر رقيق، مليء بالرنين المتعمد، غير المفهوم والمفهوم في الوقت نفسه، هذا المزيج الذي لا يمكن التعبير عنه من الأصوات العطرة، والضباب المرصع بالنجوم ونسيم البحر، الذي يبذر الموسيقى في الليل .

تذكّرتُ أغنية قصيرة للمعلم العظيم بودلير:

الطبيعة معبد تطلق فيه الأعمدة الحية

أحيانًا كلمات مشوشة .

يمر الإنسان في غابات من رموز

تراقبه بعيون مألوفة .

كالأصداء الطويلة التي تندمج من بعيد

في وحدة عميقة مظلمة

واسعة كالليل والنور،

روائح وألوان وأصوات تتجاوب مع بعضها البعض .

هناك روائح طازجة كلحم الأطفال .

حلوة كالمزامير وخضراء كالمروج

-وأخرى فاسدة وغنية ومنتصرة

بامتداد أشياء لا متناهية

كالعنبر والمسك والجاوي والبخور

التي تغني عن انتقال الروح والحواس .

ألم أشعر للتو حتى النخاع بهذه الأبيات الغامضة:

عطور وألوان وأصوات يتجاوب بعضها مع بعض.

وهي لا يستجيب لبعضها البعض في الطبيعة فحسب، بل تستجيب لبعضها البعض فينا، وتندمج أحيانًا "في وحدة مظلمة وعميقة"، على حد تعبير الشاعر، من خلال انعكاسات أحد الأعضاء على الآخر .

هذه الظاهرة معروفة أيضًا من الناحية الطبية. وقد كُتب في هذا العام بالذات عدد كبير من المقالات التي تصفها بـ "السمع الملون ."

وقد ثبت أنه، في الطبائع العصبية جداً والمفرطة في الاستثارة، عندما تتلقى إحدى الحواس صدمة تحركها بقوة، فإن اهتزاز هذا الانطباع ينتقل كالموجة إلى الحواس المجاورة التي تترجمه بطريقتها الخاصة. وهكذا، فإن الموسيقى توقظ لدى بعض الناس رؤى الألوان. إنه إذاً نوع من عدوى الحساسية التي تتحول وفقاً للوظيفة الطبيعية لكل جهاز دماغي متأثر .

وهذا ما يفسر أغنية آرثر رامبو الشهيرة عن الفروق الدقيقة في الحروف اللينة المتحركة، وهو إعلان إيمان حقيقي تبنته المدرسة الرمزية.

A noir, E blanc, I rouge, U vert, O bleu, voyelles...

أَ، أسود، أُ، أبيض، إِ، أحمر، إي، أخضر، أُو، أزرق، حروف لينة متحركة...

يوماً ما سأحكي عن ولادتك الكامنة،

أسود، مشد شعر الذباب الساطع

يطن حول رائحة قاسية،

وخليج الظل؛ روائح الأبخرة والخيام،

رماح الجليد الفخور، ملوك بيض، رعشات المظلات،

إ، قرمزي، دم مبسوط، ضحكات الشفاه الجميلة

في غضب أو سكرة تائبة؛

دورات اهتزازات البحار الفحمية؛

سلام المراعي المتناثرة بالحيوانات، سلام التجاعيد

التي تطبعها الكيمياء على الجباه العظيمة المجتهدة؛

أ، البوق الأعلى، مليء بخطوات غريبة

صمت تعبره العوالم والملائكة

-أوميغا، شعاع البنفسج من عيونها...

هل هو مصيب أم مخطئ؟ إن هذا الشاعر عند قاطع الطريق، بل عند كثير من عظمائنا، من رجالنا العظماء مجنون أو مدخن. أما بالنسبة لآخرين فقد اكتشف حقيقة مطلقة وعبر عنها، وإن كان هؤلاء المستكشفون من أصحاب التصورات المراوغة لا بد أن يختلفوا دائماً اختلافاً طفيفاً في رأيهم عن الفروق الدقيقة والصور التي يمكن أن تثيرها فينا الذبذبات الغامضة للنغمات أو الأوركسترا .

فإذا كان من المعترف به في العلم - في يومنا هذا - أن النغمات الموسيقية المؤثرة في بعض الكائنات الحية تسبب ظهور ألوان معينة، فإذا كان حرف (ج) يمكن أن يكون أحمر أو (ف) أرجواني أو أخضر، فلماذا لا تثير هذه الأصوات نفسها أيضاً نكهات في الفم وروائح في حاسة الشم؟ لماذا لا ينبغي أن يتذوق الإنسان المرهف الهستيري بعض الشيء كل الأشياء بكل حواسه في نفس الوقت، ولماذا لا ينبغي أن يكشف الرمزيون عن حساسيات

لذيذة لأمثالهم من الشعراء المتميزين غير القابلين للشفاء؟ هذا سؤال بسيط يتعلق بعلم الأمراض الفنية أكثر مما يتعلق بعلم الجمال الحقيقي.

أفلا يمكن أن يكون بعض هؤلاء الكتاب المثيرين للاهتمام، وهم من ذوي الأعصاب بالتدريب، قد بلغوا من الاستثارة إلى حد أن كل انطباع يتلقونه ينتج فيهم نوعاً من تضافر جميع الملكات الإدراكية؟

أليس هذا هو ما يعبر عنه شعرهم الغريب من الأصوات التي و إن بدت غير مفهومة إلا أنها في الحقيقة تحاول أن تغني كل ما في الأحاسيس وأن تلاحظ بمجاورة الألفاظ، أكثر مما تلاحظ باتفاقها العقلي ومعانيها المعروفة، معاني غير قابلة للترجمة غامضة علينا وواضحة عندهم؟

لأن الفنانين قد نفدت مواردهم، ونفدت منهم الأشياء الجديدة، والأشياء المجهولة، والعواطف، والصور، وكل شيء. لقد تم قطف كل الزهور في حقولهم منذ العصور القديمة. والآن، وهم في عجزهم، يشعرون في حيرة من أمرهم أنه ربما كان هناك توسيع للروح والإحساس عند الإنسان. ولكن للذكاء خمسة حواجز نصف مفتوحة ومغلقة تسمى الحواس الخمس، وهذه الحواجز الخمسة هي التي يهزها الآن بكل قوتهم الرجال العاشقون للفن الجديد.

فالذكاء الأعمى والمجهول لا يستطيع أن يعرف شيئاً، ولا أن يفهم شيئاً، ولا أن يكتشف شيئاً إلا عن طريق الحواس. هم وحدهم المزودون الوحيدون لها، الوسطاء الوحيدون بين الطبيعة الكونية والذكاء. وهي لا تعمل إلا على المعلومات التي تزودهم بها، وهم أنفسهم لا يستطيعون جمعها إلا بحسب صفاتهم وحساسيتهم وقوتهم وبراعتهم .

لذلك من الواضح أن قيمة الفكر تعتمد بشكل مباشر على قيمة الأعضاء، ونطاقها محدود بعددها .

وعلاوة على ذلك، فقد عالج السيد تاين هذه الفكرة وطورها ببراعة .

هناك خمس حواس، وخمس حواس فقط. وهي بتفسيرها تكشف لنا بعض خواص المادة المحيطة بنا، والتي يمكن ويجب أن تخفي عدداً غير محدود من الظواهر الأخرى التي لا نستطيع إدراكها.

لنفترض أن الإنسان خُلق بلا أذنين؛ فإنه سيظل يعيش بنفس الطريقة تقريبًا، ولكن الكون بالنسبة له سيكون أبكم، ولن يكون لديه أي شك في الضوضاء والموسيقى، وهي ذبذبات متغيرة. ولكن لو أنه وُهب أعضاء أخرى

قوية ودقيقة وهبت له أيضًا خاصية تحويل أفعال وصفات كل ما حولنا غير المكتشف إلى مدركات عصبية .

فكم سيكون مجال معرفتنا وعواطفنا أكثر تنوعًا !

في هذا العالم الذي لا يمكن اختراقه يحاول كل فنان أن يدخل إليه، وذلك بتعذيب آلية فكره وانتهاكها و إرهاقها. ألم يكن أولئك الذين استسلموا من خلال أدمغتهم - هاينه، وبودلير، وبلزاك، وبيرون الهائم على وجهه بحثاً عن الموت، والعاجز عن أن يكون شاعراً عظيماً، وموسيه، وجول دي غونكور وغيرهم كثير - قد حطمهم نفس الجهد الذي بذلوه في سبيل إسقاط الحاجز المادي الذي يسجن الذكاء الإنساني؟

نعم، فأعضاؤنا هي المربي والمعلم للعبقرية الفنية. فالأذن هي التي تلد الموسيقي، والعين هي التي تلد الرسام. جميعهم يساهمون في أحاسيس الشاعر .

في الروائي تهيمن الرؤية بشكل عام .

إنها تهيمن إلى حد أنه يصبح من السهل التعرف بسهولة، عند قراءة أي عمل تم الاشتغال عليه بإخلاص، على الصفات والخصائص الفيزيائية لعين

المؤلف. فتضخيم التفاصيل، وأهميتها أو صغرها، وتعديها على الخطة وطبيعتها الخاصة تشير بكل تأكيد إلى كل درجات قصر النظر واختلافاته. إن تناسق الكل، وتناسب الخطوط والمنظورات المفضلة على الملاحظة الدقيقة، ونسيان التفاصيل الصغيرة التي غالباً ما تكون من خصائص الشخص أو البيئة، ألا تدل على الفور على النظرة الممتدة ولكن المتراخية لمريض قصر النظر؟

3

الساحل الإيطالي

السماء كلها محجوبة بالغيوم. ينحدر النهار البازغ في رمادية من خلال الضباب الذي ارتفع أثناء الليل، ناشراً جداره المظلم، الكثيف في بعض الأماكن، والأبيض تقريباً في أماكن أخرى، بيننا وبين الفجر .

ثمة خوف غامض يجتاح قلبك من أن تبقينا في حداد حتى المساء، وتظل تنظر إليها في حزن شديد، بنوع من الصلاة الصامتة .

لكنك تستطيع أن تعرف من خطوط الضوء التي تفصل بين كتلهم الأكثر عتمة أن النجم فوقهم يضيء السماء الزرقاء وسطحهم الثلجي. نحن نأمل. ننتظر .

شيئاً فشيئاً تتلاشى، وتبدو رقيقة وتذوب. يمكنك أن تشعر أن الشمس تحرقها، تقضمها وتسحقها بكل ما أوتيت من حماس، وأن السقف الهائل من

السحب، الضعيف جداً، ينحني وينحني وينقسم ويتشقق ويتصدع تحت ثقل هائل من الضوء .

تضيء بقعة تضيء في وسطها، وبصيص من الضوء يسطع من خلالها. يحدث ثقب، وينزلق شعاع، مائل وطويل، ويسقط كلما اتسع. يبدو الأمر كما لو أن النار تسيطر على هذا الثقب في السماء. إنه فم ينفتح، وينمو، وينفجر لهيبًا، وتشتعل شفتاه بالنيران، ويقذف شلالًا من الضوء الذهبي على الأمواج.

ثم، في ألف مكان في نفس الوقت، تتحطم قبة الظلال وتنهار، تاركة ألف جرح تمر من خلاله سهام لامعة تنهمر على الماء وتنثر بهجة الشمس المشعة على الأفق .

ويبرد الهواء في الليل؛ وترتعش رعشة من الرياح، مجرد رعشة، تداعب البحر، بالكاد تدغدغ جلده الأزرق المتموج. أمامنا، على مخروط صخري، عريض ومرتفع، يبدو أنه يرتفع من بين الأمواج ويميل على الساحل، تتسلق بلدة مدببة، طلاها الرجال باللون الوردي، مثل الأفق بحلول الفجر المنتصر. بعض البيوت الزرقاء القليلة تشكل بقعاً ساحرة. تبدو كمكان اختارته أميرة من الليالي العربية .

هذه هي بورت موريس.

بمجرد أن تراها بهذا الشكل، لا يجب أن تدخلها .

لكنني نزلت إلى هناك .

في الداخل، خراب. تبدو المنازل مبعثرة على طول الشوارع. لقد انهار جانب كامل من المدينة باتجاه الشاطئ، ربما نتيجة الزلزال، ومن أعلى الصخرة التي تقوم عليها إلى أسفلها، الجدران متصدعة ومتشققة، وأنصاف البيوت الجصية القديمة مفتوحة لنسيم البحر. والطلاء الذي كان جميلاً جداً من بعيد، عندما كان يضاهي ضوء النهار البازغ، لم يعد الآن أكثر من غسيل باهت مخيف، شوهته الشمس وجرفته الأمطار .

وعلى طول الممرات الضيقة المتعرجة، المليئة بالحجارة والغبار، تطفو رائحة لا توصف، ولكن يمكن تفسيرها من أسفل الجدران، قوية جداً، عنيدة جداً، نفاذة جداً، حتى أنني عدت على متن اليخت، وعيناي ملطختان وقلبي مرفوع .

ومع ذلك فهذه عاصمة إقليمية. عندما تطأ قدماك هذه الأرض الإيطالية، تبدو لك كأنها علم من أعلام التعاسة.

وفي مقابلها، على الجانب الآخر من نفس الخليج، تقع أونيجليا، وهي أيضاً قذرة جداً ورائحتها كريهة جداً، و إن كانت أقل فقراً وأكثر حيوية .

تحت مدخل العربات المؤدي إلى الكلية الملكية، المفتوح في الاتجاهين في أيام العطلات هذه، تفرش امرأة عجوز فراشاً قذراً .

◊

ندخل ميناء سافونا .

مجموعة من مداخن المصانع والمسابك الهائلة، التي تغذيها كل يوم أربع أو خمس بواخر إنجليزية كبيرة محملة بالفحم، تقذف في السماء، من أفواهها العملاقة، قيء دخان ملتوٍ يتصاعد ويسقط على المدينة في الحال مطراً أسود من السخام الذي ينتقل مع النسيم من حي إلى حي مثل الثلج الجهنمي.

لا تذهبوا إلى هذا الميناء يا أصحاب المراكب الذين يحبون أن تبقى أشرعة سفنهم الصغيرة بيضاء ناصعة البياض .

لكن سافونا لطيفة رغم ذلك، إيطالية للغاية، بشوارعها الضيقة المسلية المليئة بالتجار الصاخبين، والفاكهة المنتشرة على الأرض، والطماطم القرمزية، والقرع المستدير، والعنب الأسود أو الأصفر الشفاف كما لو أنه شرب النور، والخضروات الخضراء التي قشرت على عجل والتي تبدو أوراقها المتناثرة فوق الأحجار المرصوفة وكأنها حدائق تغزو المدينة .

في طريق عودتي على متن اليخت، رأيت فجأة، على طول الرصيف، في أرجوحة نابولي على طاولة ضخمة تحمل سطح السفينة كله، شيئاً غريباً يشبه وليمة القتلة .

دموي، أحمر قاتل، يغطي المركب كله بلون يوحي للوهلة الأولى بمشاعر الذبح والمجازر واللحوم الممزقة، وقد انتشر أمام ثلاثين من البحارة ذوي الوجوه السمراء، ستين أو مائة قطعة من البطيخ الأرجواني المنزوع الأحشاء.

كما لو أن هؤلاء الرجال المبتهجين يأكلون ما يشبعهم من الوحش النازف مثل الوحوش البرية في الأقفاص. إنها وليمة. لقد دعونا الطواقم المجاورة. نحن سعداء القبعات الحمراء على رؤوسهم أقل حمرة من لحم الفاكهة .

عندما حلّ الليل تماماً، عدت إلى البلدة .

جذبني صوت الموسيقى عبر البلدة كلها. ووجدت طريقا يسلكه البورجوازيون والعامة في جماعات في طريقهم ببطء إلى الحفل الموسيقي المسائي الذي تقيمه أوركسترا البلدية مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع .

في هذه الأرض الموسيقية، هذه الأوركسترا لا تقل جودة عن تلك الموجودة في مسارحنا الجيدة، حتى في المدن الصغيرة. وتذكرت تلك التي سمعتها من على ظهر قاربي في تلك الليلة، والتي بقيت ذكراها في نفسي كأعذب مداعبة من أعذب المداعبات التي أهداها إليّ إحساس..

كانت الجادة تؤدي إلى ميدان ينتهي إلى الشاطئ، وهناك، في الظل الذي تضيئه بالكاد البقع الصفراء المتباعدة من فوهات الغاز، كانت هذه الفرقة الموسيقية تعزف لا أدري ماذا، على حافة الأمواج .

وكانت الأمواج، وهي ثقيلة بعض الشيء، رغم أن الرياح البحرية كانت قد خفتت تماماً، تجر صوتها الرتيب المنتظم على طول الشاطئ، وتضفي إيقاعاً على غناء الآلات الموسيقية الحية، وكانت السماء الفسيحة، بنفسجية لامعة تقريباً، يكسوها غبار لا متناه من النجوم، قد أضاءت ليلاً مظلماً خفيفاً. وغطى بظلامه الشفاف الجموع الصامتة التي لا تكاد تهمس بظلامها الشفاف، وهي تسير ببطء حول حلقة العازفين أو تجلس على مقاعد

الكورنيش، أو على الحجارة الكبيرة المتروكة على طول الشاطئ، أو على عوارض ضخمة مفروشة على الأرض بجوار الهيكل الخشبي الطويل، الذي لا تزال أضلاعه نصف مفتوحة، لسفينة كبيرة قيد الإنشاء.

لا أعرف إن كانت نساء سافونا جميلات، ولكني أعرف أن جميعهن تقريباً يتجولن في المساء حاسرات الرؤوس، وفي أيديهن جميعاً مراوح. لقد كان ساحراً ذلك الخفقان الصامت للأجنحة الأسيرة، أجنحة بيضاء أو مرقطة أو سوداء، تلمحها مرتجفة كالفراشات الكبيرة التي تمسك بين الأصابع. مع كل امرأة التقيناها، في كل مجموعة تجولت أو استراحت، كان هناك هذا الرفرفة الأسيرة، هذا الجهد الغامض للتحليق بعيداً عن أوراق الشجر المتمايلة التي بدت وكأنها تنعش هواء المساء، وتضيف شيئاً من الغنج والأنوثة والنعومة إلى صدر الرجل ليتنفسه .

ثم، في خضم هذه الفورة من المراوح وكل هذا الشعر العاري من حولي، بدأت أحلم بسذاجة، كما لو كنت في ذكريات الحكايات الخرافية، كما كنت أفعل في المدرسة، في المهجع الجليدي، قبل أن أغفو وأنا أفكر في الرواية التي كنت ألتهمها سراً تحت غطاء المكتب .

وأحياناً، في أعماق قلبي العجوز، المسموم بالشك، يستيقظ قلبي الصبي الصغير الساذج للحظات قليلة.

◊

من أجمل الأشياء التي يمكن أن تراها في العالم: جنوة، من البحر المفتوح. في قاع الخليج، ترتفع المدينة وكأنها خارجة من الأمواج، عند سفح الجبل. وعلى طول الساحلين اللذين ينحنيان حولها ليطوقاها ويحمياها ويداعباها، خمس عشرة بلدة صغيرة، جيراناً وتوابع وخدم، تنعكس وتسبح بيوتهم ذات الألوان الفاتحة في الماء. إلى يسار شفيعها العظيم، هي كوجوليتو، أرينزانو، فولتري، برا، بيجلي، سيستري بونتي، سان بيير دأرينا؛ و إلى اليمين، ستورلا، كوارتو، كوينتو، نيرفي، بوغلياسكو، سوري، ريكو، كاموغلي، آخر بقعة بيضاء على رأس بورتو فينو، التي تغلق الخليج إلى الجنوب الشرقي .

وفوق مينائها الهائل، تقف جنوة على المنحدرات الأولى لجبال الألب التي ترتفع خلفها منحنية وممتدة كجدار عملاق. وعلى حاجز الأمواج، يوجد برج

طويل جداً ومربع الشكل، وهو المنارة المعروفة باسم "الفانوس"، والتي تبدو مثل شمعة كبيرة الحجم.

إذا لم يكن هناك ما هو أجمل من مدخل هذا الميناء، فليس هناك ما هو أقذر من مدخل هذه المدينة. فشارع الرصيف مستنقع من القمامة، والشوارع الضيقة الأصلية المحصورة كالممرات بين خطين متعرجين من المنازل الطويلة غير المتناسبة لا تنفك ترفع القلب بأبخرتها الوبائية .

إنك تشعر في جنوة بما تشعر به في فلورنسا، بل وأكثر من ذلك في البندقية، انطباع مدينة أرستقراطية جداً سقطت في يد الرعاع .

وتذكرك بالأمراء الخشنين الذين كانوا يحاربون أو يتاجرون في البحر، ثم يبنون بأموال غزواتهم أو أسراهم أو تجارتهم القصور الرخامية المذهلة التي لا تزال تصطف في الشوارع الرئيسية.

عندما يدخل المرء إلى هذه المساكن الرائعة التي رسمها أحفاد هؤلاء العظماء من مواطني أعظم الجمهوريات فخراً، ويقارن بين طرازها وأفنيتها وحدائقها وأروقتها الداخلية وكل ما فيها من زخرفة ونظام رائع، وبين البربرية الفخمة في أجمل فنادق باريس الحديثة، وبين قصور الأثرياء الذين لا

يعرفون إلا أن يلمسوا المال والذين لا يستطيعون أن يتصوروا شيئاً جديداً جميلاً يرغبوا فيه ولا يخرجونه إلى الوجود بذهبهم، من السهل أن نفهم أن التمييز الحقيقي للذكاء، وأن الإحساس بالجمال النادر لأصغر الأشكال، وكمال النسب والخطوط، قد اختفى من مجتمعنا الذي أصبح ديمقراطياً، خليطاً من أثرياء متمولين بلا ذوق ومبتدئين بلا تقاليد .

بل إن من الملاحظات العجيبة التي يمكن أن نلاحظها هي تلك المتعلقة بتفاهة الفندق الحديث. اذهب إلى القصور القديمة في جنوة وسترى سلسلة متوالية من باحات الشرف ذات الأروقة والأعمدة والسلالم الرخامية الجميلة بشكل لا يصدق، وكلها مصممة بشكل مختلف، وقد صممها فنانون حقيقيون لرجال ذوي عيون مثقفة وصعبة.

ادخل إلى القصور القديمة في فرنسا، وستجد نفس الجهود المبذولة للتجديد المستمر في الطراز والزخرفة .

ثم ادخل إلى أغنى المساكن في باريس في الوقت الحاضر، وستعجبك أشياء أثرية غريبة مفهرسة بعناية وموسومة ومعروضة تحت الزجاج حسب قيمتها المعروفة والمقتبسة والمثبتة من قبل الخبراء، ولكنك لن تفاجأ مرة واحدة بالابتكار الأصلي والجديد في مختلف أجزاء المسكن نفسه .

فالمهندس المعماري يكلف ببناء منزل جميل تبلغ قيمته عدة ملايين، ويتقاضى خمسة أو عشرة في المائة من التكاليف، حسب مقدار العمل الفني الذي يجب أن يتضمنه مخططه .

ويتولى المنجد، بشروط مختلفة، مسؤولية تزيينه. ولما كان هؤلاء الصناع يدركون جيداً عدم كفاءة عملائهم الأصليين ولا يغامرون بتقديم شيء غير معروف لهم، فإنهم يكتفون بتكرار ما سبق أن قاموا به لغيرهم بشكل أو بآخر.

بعد أن تزور هذه المساكن القديمة والنبيلة في جنوة وتعجب ببعض اللوحات، وفوق كل شيء ثلاث روائع للفنان الحرفي الكبير المعروف باسم فان دايك، لا يبقى أمامك إلا أن تشاهد كامبو سانتو، المقبرة الحديثة، أكثر متاحف النحت الجنائزي في العالم غرابة ودهشة ورعباً وربما هزلية. على طول الرواق الرباعي الهائل، وهو عبارة عن دير عملاق يفتح على فناء مغطى بثلج من الألواح البيضاء التي تغطيها مقابر الفقراء، نسير أمام موكب من الرخام البرجوازيين الذين يندبون موتاهم .

يا له من لغز! يشهد تنفيذ هذه المجسمات على براعة رائعة وموهبة حقيقية في العمل الفني. تتجلى طبيعة الفساتين والسترات والسراويل من خلال الحرفية المذهلة. لقد رأيت مرحاضاً، يظهر في فواصل نظيفة في النسيج ذات

دقة لا تصدق؛ وليس هناك ما هو أكثر بشاعة لا تقاوم، وعادية بشكل وحشي، وشائعة بشكل ساخط، من هؤلاء الناس الذين يبكون على أحبائهم. خطأ من هذا؟ إلى النحات الذي لم ير في فراسة نماذجه إلا ابتذال البرجوازيين المعاصرين الذين لم يعد يعرف كيف يجد فيهم ذلك الانعكاس الأسمى للإنسانية الذي لمحه الرسامون الفلمنكيون عندما عبروا عن أكثر أنواع جنسهم شعبية وأقبحهم. - وربما كان البرجوازي الذي دحرجته الحضارة الديمقراطية الوضيعة كحصاة من البحار فقضمت شخصيته المميزة ومحتها، وفقد في أثناء ذلك آخر علامات الأصالة التي كانت تبدو كل طبقة اجتماعية قد وهبتها الطبيعة ذات يوم .

ويبدو أن الجنوبيين فخورون جداً بهذا المتحف المدهش الذي يبعث على الدهشة ويخلخل بالحكم.

◊

من ميناء جنوة إلى طرف بورتو فينو، سلسلة من البلدات، سلسلة من المنازل على الشواطئ، بين زرقة البحر وخضرة الجبال. يجبرنا النسيم الجنوبي الشرقي على الإبحار. كان خفيفاً، ولكن مع هبات مفاجئة أمالت اليخت، وقذفت به فجأة إلى الأمام، كحصان يُحمل بعيداً، مع انتفاخات من الرغوة تتصاعد من مقدمة اليخت مثل وحل وحش البحر. ثم هدأت الرياح وهدأ المركب مستأنفاً مساره الهادئ الصغير الذي كان، وفقاً للمد والجزر، يبعده أحياناً ويقرّبه أحياناً أخرى من الساحل الإيطالي. وفي حوالي الساعة الثانية تقريباً، قال لي الربان الذي كان يستطلع الأفق بالمنظار ليرى من الأشرعة المنصوبة والمدارات التي تتخذها السفن التي في الأفق، قوة واتجاه التيارات الهوائية في هذه الأنحاء حيث كل خليج يعطي رياحاً عاصفة أو خفيفة حيث التغيرات في الطقس سريعة كأعصاب المرأة، قال لي فجأة: "سيدي، عليك أن ترفع ذراع الرافعة؛ فقد رفعت للتو البارجتان اللتان أمامنا أشرعتهما العالية. إن الرياح شديدة في الخارج .

أُعطي الأمر، ونزل القماش الطويل المنتفخ من أعلى الصاري، وانزلق متدلياً ومترهلاً، ولا يزال يرفرف مثل طائر يُقتل، على طول الشراع الأمامي الذي بدأ يشعر باقتراب العاصفة.

لم تكن هناك أمواج. ولكن فجأة، وعلى مسافة بعيدة، أمامنا، رأيت الماء أبيض كله، أبيض كما لو كان قد فرش فوقه صفيحة. وكان يقترب، يقترب ويقترب بسرعة أكبر، وعندما أصبح هذا الخط القطني لا يبعد عنا أكثر من بضع مئات من الأمتار، تلقت كل أشرعة اليخت فجأة هزة عظيمة من الرياح التي بدت وكأنها تعدو على سطح البحر، غاضبة هائجة، تضرب في جانبها كما تضرب يد في بطن بجعة. وكل ذلك الزبد الذي انتزعته من الماء، ذلك الزبد الذي كان يتطاير ويتطاير ويتناثر تحت الهجوم الخفي والصفير الذي كان يهب من الريح. ونحن أيضاً، مستلقون على جوانبنا، والألواح الخشبية غارقة في الماء المتلاطم الصاعد إلى سطح السفينة، والأكفان مشدودة، والصاري يصدر صريراً، انطلقنا في سباق محموم، وقد غلبنا الدوار، وغضب السرعة. إنها حقًا سكرة فريدة من نوعها، مبهجة بشكل لا يمكن تخيله، أن تمسك بكلتا يديك، مع كل عضلاتك المتوترة من العرقوب إلى الرقبة، القضيب الحديدي الطويل الذي يقود عبر العواصف هذا الوحش، المحمول والخامل، الطيع والهامد، المصنوع من القماش والخشب .

ولم يدم غضب الهواء هذا إلا ثلاثة أرباع الساعة تقريباً؛ وفجأة، عندما استعاد البحر الأبيض المتوسط لونه الأزرق الجميل، بدا لي، وقد أصبح الجو فجأة رقيقاً، إن مزاج السماء قد هدأ .

لقد كان غضباً باهتاً، ونهاية صباح عابس؛ وانتشرت ضحكات الشمس المبهجة في كل مكان .

وعندما اقتربنا من الرأس، رأيت كنيسة وثلاثة منازل في الطرف البعيد، عند سفح الساحل المنحدر، في فجوة بدت لي غير نافذة. من يعيش هناك بحق الله؟ ماذا يمكن لهؤلاء الناس أن يفعلوا؟ كيف يتواصلون مع الأحياء الآخرين إن لم يكن عن طريق أحد الزورقين الصغيرين اللذين يركبان على شاطئهم الضيق؟

هنا النقطة المزدوجة. يستمر الساحل حتى بورتو فينيري، عند مدخل خليج سبيتسيا. هذا الامتداد الكامل للساحل الإيطالي مغرٍ بشكل لا يضاهى .

في خليج عريض وعميق مفتوح أمامنا، نلمح خليج سانتا مارغريتا، ثم رابالو وكيافاري. أبعد من ذلك، سيستري ليفانتي. كان اليخت قد غيّر مساره وكان ينزلق على مرمى حجر من الصخور، والآن، في نهاية هذا الرأس الذي كنا قد

انتهينا للتو من الدوران حوله، اكتشفنا فجأة مضيقاً يدخل منه البحر، مضيق خفيّ يخفي وادياً خفياً، يكاد يستحيل العثور عليه، مليء بالأشجار، أشجار التنوب وأشجار الزيتون وأشجار الكستناء .

تنمو قرية صغيرة، بورتو فينو، على شكل نصف قمر حول هذا الحوض الهادئ .

ونعبر ببطء الممر الضيق الذي يربط هذا المرفأ الطبيعي المبهج بالبحر المفتوح، وندخل هذه الدائرة من المنازل التي تعلوها أخشاب خضراء قوية ونضرة، وكلاهما ينعكس على مرآة الماء الهادئة المستديرة حيث تبدو بضعة قوارب صيد وكأنها نائمة .

يأتي أحدها إلينا يمتطيه رجل عجوز. يرحب بنا ويشير إلى المرسى، ثم يأخذ حبل الإرساء ليوصله إلى الشاطئ، ثم يعود ليعرض خدماته ونصائحه وأي شيء نود أن نطلبه منه، وأخيراً يشرفنا بشرف هذه القرية الصغيرة التي تصطاد السمك. إنه ربان الميناء.

ولعلني لم أشعر قط بانطباع من الهناء يماثل انطباع دخولي هذا الخليج الأخضر، وشعور بالراحة والهدوء، وتوقف الاضطراب العبثي الذي تتصارع

فيه الحياة، أقوى وأشد راحة من ذلك الذي استولى عليَّ عندما أخبرني صوت سقوط المرساة كل كياني المسرور بأننا قد ثبتنا هناك .

كنت أجدف منذ ثمانية أيام. وظل اليخت ساكناً في وسط الرصيف الصغير الهادئ؛ وأنا أطوف بزورقي على طول الساحل، في الكهوف التي يندفع فيها البحر في ثقوب غير مرئية، وحول الجزر الصغيرة الغريبة المنبعجة التي يبللها بقبلات لا تنتهي في كل مرة من مرات صعوده، وعلى الشعاب الضحلة التي تحمل أعشاباً بحرية. وأحب أن أرى هذه النباتات الطويلة الحمراء أو الخضراء تطفو تحتي، في تموجات الموج غير المحسوس، حيث تختلط الأسر الهائلة التي لا تكاد تنغلق على نفسها من صغار الأسماك الصغيرة وتختبئ وتنساب. تبدو مثل بذور الإبر الفضية التي تأتي وتسبح.

عندما أنظر إلى الصخور على طول الشاطئ، أرى مجموعات من الأطفال العراة بأجسادهم السمراء، مندهشين من هذا المتجول. وهناك عدد لا يحصى منهم أيضاً، كأنهم نسل آخر من نسل البحر، كأنهم قبيلة من صغار السمندل ولدوا بالأمس، يلهون ويتسلقون ضفاف الجرانيت ليشربوا قليلاً من هواء الفضاء. بعضها مختبئ في كل شق، والبعض الآخر يمكن رؤيته واقفاً على قممها راسماً تماثيله البرونزية الجميلة الضعيفة على السماء الإيطالية.

ويجلس البعض الآخر بأرجلهم المتدلية على حافة الصخور الكبيرة، يستريحون بين الغطسات .

◊

غادرنا بورتو-فينو للإقامة في سانتا مارغريتا. هذا ليس ميناءً، بل قاع خليج محمي قليلاً بحاجز أمواج.

هنا، الأرض آسرة جداً لدرجة أنها تجعلك تنسى البحر تقريباً. البلدة محمية بزاوية جوفاء من الجبلين. يفصل بينهما وادٍ يؤدي إلى جنوة. وعلى هذين المنحدرين، تتقاطع مسالك صغيرة لا حصر لها بين جدارين حجريين بارتفاع متر تقريباً، تصعد وتنزل، تصعد وتنزل، ضيقة وحجرية، في وديان ودرجات، وتفصل حقولاً لا حصر لها أو بالأحرى حدائق لا حصر لها من أشجار الزيتون والتين المزينة بالقرميد الأحمر. ومن خلال أوراق الشجر المحترقة من الكروم المتسلقة للأشجار، يمكنك أن ترى البحر الأزرق على مد البصر، والرؤوس الحمراء والقرى البيضاء وغابات التنوب على المنحدرات، والقمم العظيمة

من الجرانيت الرمادي. أمام المنازل التي تقابلها من مكان إلى آخر، تصنع النساء الدانتيل. ولا تكاد تجد في هذه البلاد كلها مدخلاً لا تجلس فيه اثنتان أو ثلاث من هؤلاء العاملات يعملن في هذه المهمة المتوارثة، ويتناولن بأصابعهن الخفيفة الخيوط الكثيرة البيضاء والسوداء التي تتدلى عليها قطع قصيرة من الخشب الأصفر وتتراقص في قفزة أبدية. وغالباً ما يكنّ جميلات وطويلات القامة ومظهرهن فخم، ولكنهن غير مهذبين...

ولا يزال الكثير منهن يحتفظن بآثار الدم العربي .

وذات يوم، وعلى ناصية شارع من شوارع القرية مرّت بي إحداهن، تاركة في نفسي انفعالاً من أعجب ما صادفته من جمال.

وتحت قلنسوة ثقيلة من الشعر الداكن الذي كان يتطاير حول جبينها في فوضى متسرعة مزدرية، كان لها قوام بيضاوي أسمر اللون كأي امرأة شرقية من بنات عرب شمال افريقيا التي احتفظت بمشية أجدادها؛ ولكن شمس فلورنسا قد أضفت على بشرتها وهجاً ذهبياً .

عيناها - يا لها من عينين! - طويلتان سوداوان لا يمكن اختراقهما، كانتا تبدوان كأنهما تنسلان في عناية لا تهدأ بين رموش متلاصقة وكبيرة لم أر

مثلهما قط. وكان اللحم حول هاتين العينين مظلماً بشكل غريب، بحيث لو لم يكن المرء قد رآه في النور الكامل، لشك في أنه من حيل الاجتماعيين .

إنك حين تصادف مثل هذه المخلوقات في ثياب بالية، فلماذا لا تمسكها وتأخذها بعيداً ولو لم يكن ذلك إلا لتزينها وتقول لها إنها جميلة وتعجب بها! وماذا يهم إذا لم يفهمن سر تمجيدنا لهن، فظّات كسائر الأصنام، ساحرات مثلهن، لم يصنعن إلا لتحبهن القلوب الهاذية، وتحتفي بهن بكلمات تليق بجمالهن!

◊

لو خُيِّرتُ بين أجمل المخلوقات الحية وبين المرأة التي رسمها تيتيان التي رأيتها بعد ثمانية أيام في قاعة تريبيون في فلورنسا، لاخترت المرأة التي رسمها تيتيان .

إن فلورنسا، التي تستهويني كمدينة كنت أود أن أعيش فيها أكثر من غيرها في الماضي، والتي لها سحر لا يوصف لعيني وقلبي، لا تزال تجذبني بشكل

حسي تقريباً بهذه الصورة لامرأة متكئة، حلم عجيب من الجاذبية الجسدية. وعندما أفكر في هذه المدينة المليئة بالعجائب التي أعود في نهاية اليوم وأنا أتألم من رؤيتها كما يتألم الصياد من السير فيها، أرى فجأة هذه اللوحة الطويلة العظيمة، حيث تستريح هذه المرأة العظيمة ذات اللفتة الوقحة عارية شقراء مستيقظة هادئة.

ثم من بعدها، بعد هذا الاستحضار لكل القوة المغرية للجسد البشري، تظهر بعدها، بنعومة وتواضع، عذارى: عذارى رافائيل أولاً. وعذراء طائر الحسون، وعذراء الدوق الأكبر، وعذراء الكرسي، وغيرهن، أخريات أيضا تلك التي تنتمي للبدائيات، بملامحهن البريئة وشعورهن الشاحبة، المثالية والصوفية، وتلك التي من المواد، المفعمة بالصحة .

وعندما تتجول ليس فقط في هذه المدينة الفريدة، بل في توسكانا كلها، حيث سكب رجال عصر النهضة روائعهم، تتعجب بدهشة من تلك الروح السامية الخصبة الثملة بالجمال، المبدعة بجنون، لتلك الأجيال التي هزها الهذيان الفني .

في كنائس المدن الصغيرة، حيث يذهب الناس بحثاً عن أشياء لا يراها المتجول العادي، يكتشفون على الجدران، في مؤخرة الجوقة، لوحات لا تقدر

بثمن لهؤلاء الأساتذة العظماء المتواضعين، الذين لم يبيعوا لوحاتهم في الأمريكتين اللتين لم تكتشفا بعد، ومضوا فقراء لا أمل لهم في الثروة، يعملون للفن كالعمال الأتقياء.

ولم يترك هذا العِرق الذي لا ينقطع شيئاً أقل شأناً. ونفس انعكاس الجمال الخالد الذي ظهر تحت فرشاة الرسامين و إزميل النحاتين يتجلى في خطوط من الحجر على واجهات الآثار. فالكنائس مليئة بمنحوتات لوكا ديلا روبيا ودوناتيلو ومايكل أنجلو؛ وأبوابها البرونزية من أعمال بونانوس أو يوحنا البولوني .

عندما تصل إلى ساحة ديلا سينيوريا، مقابل لوجيا دي لانزي، يمكنك أن ترى تحت الرواق نفسه تمثال اختطاف نساء سابين وهرقل وهو يضرب القنطور نيسوس، من عمل جون بولونيا؛ وتمثال بيرسيوس مع رأس ميدوسا من عمل بينفينوتو تشيليني؛ وتمثال جوديث وهولوفرنيس من عمل دوناتيلو. وقبل سنوات قليلة فقط، كان يضم أيضاً لوحة "ديفيد" لمايكل أنجلو .

ولكن كلما زاد انبهارك بإغراء هذه الرحلة عبر غابة من الأعمال الفنية، كلما غزاك شعور غريب من عدم الارتياح سرعان ما يختلط مع متعة المشاهدة.

إنه يأتي من التناقض المدهش بين الجماهير الحديثة المبتذلة جداً والجاهلة جداً بما تنظر إليه، وبين الأماكن التي تسكنها. يشعر المرء أن الروح الرقيقة، المتغطرسة والراقية التي كانت تسكنها تلك الجموع القديمة المتلاشية التي كانت تكسو هذه الأرض بالروائع لم تعد تحرك الرؤوس ذات القبعات المستديرة ذات اللون الشوكولاطي، ولم تعد تحرك العيون اللامبالية، ولم تعد تعلي من شأن الرغبات المبتذلة لهذا الشعب الذي لا يحلم .

◊

في طريق عودتي إلى الساحل، توقفت في بيزا لأرى بيازا ديل دومو مرة أخرى. من يستطيع أن يفسر السحر الثاقب والحزين لبعض المدن التي كادت أن تندثر؟

بيزا واحدة من هذه الأماكن. فما أن تطأ قدماك داخلها حتى تشعر بفتور كئيب في نفسك، ورغبة عاجزة في الرحيل أو البقاء، ورغبة لا مبالية في الفرار

والتلذذ إلى ما لا نهاية بعذوبة هوائها الباهت وسمائها وبيوتها وشوارعها التي يسكنها أهدأ السكان وأشدهم كآبة وأصمتهم .

يبدو أن الحياة قد انسلت منها كالبحر، ودفنت ميناءها الذي كان في يوم من الأيام ذا سيادة على البحر، فامتد سهل ونمت غابة بين الشاطئ الجديد والمدينة المهجورة .

يتدفق نهر الأرنو في مجراه الأصفر، متموجاً بلطف بين جدارين مرتفعين يدعمان الممشيين الرئيسيين اللذين تصطف على جانبيهما المنازل، الصفراء أيضاً، والفنادق وبعض القصور المتواضعة .

وحدها كنيسة سانتا ماريا ديلا سبينا الصغيرة المبنية على رصيف الميناء نفسه تقطع خطه المتعرج بحدة وهي على الطراز الفرنسي من القرن الثالث عشر، ويرتفع شكلها المتقن الذي يشبه الذخائر فوق الماء مباشرة. عند رؤيتها هكذا على ضفاف النهر، تبدو وكأنها مغتسل قوطي جميل للعذراء حيث تأتي الملائكة ليلاً لتغسل كل ملابس العذارى المجعدة .

لكن طريق سانتا ماريا يأخذك إلى ساحة ديل دومو.

بالنسبة للأشخاص الذين لا يزالون يتأثرون بجمال الآثار وقوتها الغامضة، لا يوجد بالتأكيد شيء على وجه الأرض أكثر إثارة للدهشة من هذه الساحة العشبية الشاسعة، المحاطة بأسوار عالية تحيط، في أوضاعها المتنوعة جداً، بالدومو وكامبو سانتو والمعمودية والبرج المائل .

وعندما تصل إلى حافة هذا الحقل البري المهجور المحاط بالأسوار القديمة حيث ترتفع أمام عينيك فجأة هذه الكائنات الرخامية الأربعة العظيمة غير المتوقعة في شكلها ولونها وتناسقها ورونقها الرائع المتناسق، فإنك تقف عاجزاً عن الكلام من الدهشة ومضطرباً من الإعجاب وأنت تقف أمام أندر وأضخم مشهد يمكن أن يقدمه الفن الإنساني للعين .

ولكن الدومو هو الذي سرعان ما يجذب انتباهنا ويستحوذ عليه بتناغمه الذي لا يمكن التعبير عنه، وقوة أبعاده التي لا تقاوم، وروعة واجهته .

إنها بازيليكا تعود إلى القرن الحادي عشر على الطراز التوسكاني، كلها من الرخام الأبيض مع تطعيمات سوداء وملونة. وفي مواجهة هذا الكمال في العمارة الرومانية الإيطالية لا يوجد شيء من الدهشة التي تفرضها بعض الكاتدرائيات القوطية على النفس بارتفاعها الجريء وأناقة أبراجها وجرسها وزخرفة الحجر الذي يغلفها وعدم التناسب الهائل بين ارتفاعها وأقدامها.

ولكننا نظل مندهشين ومأسورين بالأبعاد التي لا يمكن أن ننساها، وبالسحر الذي لا يمكن ترجمته للخطوط والأشكال والواجهة المزينة في الأسفل بأعمدة تربطها أروقة، وفي الأعلى بأربعة أروقة من الأعمدة الصغيرة من الأرض إلى الأرض، بحيث يبقى إغراء هذا النصب معنا مثل إغراء قصيدة رائعة، مثل عاطفة موجودة .

لا فائدة من وصف هذه الأشياء، بل عليك أن تراها، وأن تراها أمام سمائها، تلك السماء الكلاسيكية ذات اللون الأزرق الخاص، حيث تبدو الغيوم البطيئة الحركة التي تتدحرج عبر الأفق في كتل فضية وكأنها قد نسختها الطبيعة من لوحات فناني توسكان .

لأن هؤلاء الفنانين القدماء كانوا واقعيين، متشبعين تماماً بالجو الإيطالي؛ ولم يبق من الحرفيين الزائفين إلا من قلدهم تحت الشمس الفرنسية.

و يقف خلف الكاتدرائية، الكامبانيل الذي يميل إلى الأبد كما لو كان على وشك السقوط، ويتداخل بشكل ساخر مع الإحساس بالتوازن الذي نحمله في داخلنا، وفي مقابلها، تدور المعمودية بقبتها المخروطية العالية أمام بوابة كامبو سانتو .

وفي هذه المقبرة العتيقة التي تصنف لوحاتها الجدارية في عداد اللوحات الفنية ذات الأهمية الكبرى، يمتد الدير المبهج ذو النعمة النافذة والحزينة، وفي وسطه شجرتان من أشجار الليمون العتيقة تخفيان تحت رداء خضرتها كمية من الخشب الميت بحيث تحدثان ضجيجاً غريباً من العظام المتصادمة مع أنفاس الريح .

◊

تمر الأيام. الصيف يقترب من نهايته. أُرِيدُ أَنْ أَزُورَ بَلَدًا بَعِيدًا آخَرَ، حَيْثُ تَرَكَ رِجَالٌ آخَرُونَ ذِكرَى أَضْعَفَ ولكنه أبدي أيضًا. إنهم حقاً الوحيدون الذين نجحوا في منح بلدهم معرضاً عالمياً سيعود الناس لمشاهدته لقرون قادمة.

4

صقلية

في فرنسا، الناس مقتنعون بأن صقلية بلد وحشي وصعب بل وخطير في زيارته. ومن وقت لآخر، يغامر أحد المسافرين الذين يتصفون بالجرأة والإقدام فيغامر حتى يصل إلى باليرمو، ويعود معلناً أنها مدينة مثيرة جداً للاهتمام. وهذا كل ما في الأمر. ما الذي يجعل باليرمو وصقلية كلها مثيرة للاهتمام؟ نحن لا نعرف حقاً، الأمر كله يتعلق بالموضة. إن هذه الجزيرة، لؤلؤة البحر الأبيض المتوسط، ليست من تلك الأماكن التي من المعتاد زيارتها، والتي من الذوق السليم التعرف عليها، والتي تشكل، مثل إيطاليا، جزءاً من تعليم الرجل المربى جيداً .

على أن صقلية من وجهتي النظر يجب أن تجتذب المسافرين من ناحيتين، لأن محاسنها الطبيعية وجمالها الفني لا تقل اعتبارا عن خصوصياتها الكثيرة الرائعة. ونحن نعلم مدى خصوبة هذه الأرض التي سميت بمخزن

الحبوب في إيطاليا، والتي غزتها الشعوب كلها وامتلكتها واحداً بعد الآخر، وكانت رغبتهم في امتلاكها عنيفة جداً، مما جعل كثيراً من الرجال يتقاتلون ويموتون كفتاة جميلة مرغوبة بشغف.

إنها، بقدر ما هي إسبانيا، أرض البرتقال، الأرض المزهرة التي لا يكون هواءها في الربيع إلا عطراً؛ وفي كل مساء يضيء فوق البحار الفانوس الوحشي لجبل إتنا أكبر بركان في أوروبا. ولكن ما يجعلها، قبل كل شيء، أرضاً لا غنى عن رؤيتها وفريدة من نوعها في العالم، هو أنها، من أولها إلى آخرها، متحف غريب و إلهي للعمارة .

لقد ماتت الهندسة المعمارية اليوم، في هذا القرن الذي لا يزال فنياً، ولكن يبدو أنه فقد موهبة صنع الجمال من الحجر، والسر الغامض للإغواء من خلال الخطوط، والإحساس بالجمال في الآثار. يبدو أننا لم نعد نفهم أو نعرف أن مجرد تناسب جدار ما يمكن أن يمنح العقل نفس الإحساس بالبهجة الفنية، نفس العاطفة العميقة والسرية التي تمنحها تحفة فنية لرامبرانت أو فيلاسكيز أو فيرونيز.

وقد كان من حسن حظ صقلية أن امتلكتها شعوب خصبة من الشمال والجنوب على السواء، الواحد بعد الآخر، فغطت أراضيها بمجموعة لا حصر

لها من الأعمال، حيث تمتزج التأثيرات المتناقضة بطريقة ساحرة وغير متوقعة. وقد أدى ذلك إلى نشوء فن خاص، غير معروف في أي مكان آخر، حيث يسود التأثير العربي وسط ذكريات إغريقية وحتى مصرية، وحيث تخفف حدة الطراز القوطي الذي جلبه النورمانديون من حدة علم الزخرفة والزخرفة البيزنطية الرائع .

وإنه لمن السرور المبهج أن نبحث في هذه الآثار البديعة عن العلامة الخاصة لكل فن من هذه الفنون، وأن نلاحظ أحياناً التفاصيل القادمة من مصر، مثل الزخارف المبيضات التي جلبها العرب، والأقبية البارزة، أو بالأحرى المعلقات، وأحياناً الزخرفة البيزنطية الخالصة، أو الزخارف القوطية الجميلة التي توقظ فجأة ذكريات الكاتدرائيات العالية في البلاد الباردة، في هذه الكنائس المنخفضة قليلاً، والتي بناها أيضاً أمراء نورمانديون.

وبمجرد أن ترى كل هذه المعالم التي وإن كانت تنتمي إلى عصور وأنواع مختلفة إلا أنها ذات طابع وطبيعة واحدة، يمكنك القول بأنها ليست قوطية أو عربية أو بيزنطية بل صقلية؛ يمكنك القول بأن هناك فن صقلي وطراز صقلي يمكن التعرف عليه دائماً، وهو بلا شك الأكثر سحراً وتنوعاً وألواناً وامتلاءً بالخيال من بين جميع الطرز المعمارية .

تعد صقلية أيضاً موطناً لأروع وأكمل نماذج العمارة الإغريقية القديمة التي تقع وسط مناظر طبيعية جميلة لا تضاهى.

أسهل معبر هو من نابولي إلى باليرمو. عندما تغادر القارب، تفاجأ بالحركة والبهجة في هذه المدينة الكبيرة التي يبلغ عدد سكانها 250,000 نسمة، مليئة بالمتاجر والضوضاء، أقل صخباً من نابولي، ولكن بنفس القدر من الحيوية. بادئ ذي بدء، تتوقف أمام أول عربة تراها. هذه العربات، وهي عبارة عن صناديق صغيرة مربعة الشكل تطفو عالياً على عجلات صفراء، مزينة بلوحات ساذجة وغريبة تصور أحداثاً تاريخية أو أحداثاً معينة، مغامرات من كل الأنواع، معارك، اجتماعات الملوك، ولكن قبل كل شيء، معارك نابليون الأول والحروب الصليبية. وهي مدعومة على المحور بقطع غير اعتيادية من الخشب والحديد، كما أن قضبان عجلاتها منحوتة أيضاً. أما الدابة التي تجرها فترتدي بوم على رأسها وآخر في منتصف ظهرها، وترتدي لباساً جميلاً وملوناً، وكل قطعة من الجلد مزينة بنوع من الصوف الأحمر وأجراس صغيرة. وتمر هذه العربات الملونة في الشوارع، مضحكة ومختلفة، تجذب العين والعقل، تجول في الشوارع كالألغاز التي نحاول دائماً تخمينها.

تتمتع باليرمو بشكل مميز للغاية. تقع المدينة في وسط سيرك شاسع من الجبال الجرداء، زرقاء رمادية اللون مع ظلال حمراء من حين لآخر، وتنقسم إلى أربعة أجزاء من خلال شارعين

شارعين مستقيمين يتقاطعان في المنتصف. من هذا التقاطع يمكنك أن ترى الجبل من ثلاث جهات، هناك، في نهاية هذه الممرات الهائلة من المنازل، ومن الرابع يمكنك أن ترى البحر، بقعة زرقاء خام، تبدو قريبة جداً، كما لو أن المدينة قد سقطت فيه!

هذه الكنيسة ليس لها واجهة خارجية. تدخل القصر، حيث تذهلك أولاً أناقة الفناء الداخلي المحاط بالأعمدة. وهناك درج جميل ذو عوائد مستقيمة يخلق منظراً ذا تأثير غير متوقع. ومقابل باب المدخل، باب آخر يخترق جدار القصر وينفتح على الريف البعيد.

يبدو وكأنه يرمي بالعقل إلى أراضٍ لا متناهية وأحلام لا حدود لها، من خلال هذه الفتحة المقوسة التي تخطف الأنظار وتحملها بشكل لا يقاوم نحو القمة الزرقاء للجبل الذي يظهر هناك، بعيداً، بعيداً جداً، فوق سهل هائل من أشجار البرتقال.

عندما تدخل إلى الكنيسة، يذهلك في البداية شيء مدهش يفاجئك قبل أن تفهمه، فتشعر بقوته قبل أن تفهمه. إن جمال هذه الكنيسة الصغيرة الملونة والهادئة والنفاذة التي لا تقاوم والتي هي تحفة فنية مطلقة لا يمكن تخيلها، تجعلك لا تتحرك أمام هذه الجدران المغطاة بالفسيفساء الهائلة ذات الخلفية الذهبية، التي تتلألأ بنور خافت وتضيء النصب كله بنور مظلم، فتجذب أفكارك في الحال إلى مناظر كتابية و إلهية حيث ترى واقفاً في سماء من نار كل الذين شاركوا في حياة الإنسان-الإله.

رغبة واحدة راودتني يوم وصولي في ذلك اليوم. أردت أن أرى كنيسة بالاتين التي قيل لي إنها أعجوبة العجائب.

فكنيسة البلاتين، وهي أجمل ما في العالم وأعجب جوهرة دينية حلم بها الفكر البشري ونفذتها الأيدي الفنية، محاطة بالهيكل الثقيل للقصر الملكي، وهو حصن قديم بناه النورمانديون.

هذه الكنيسة ليس لها واجهة خارجية. تدخل القصر، حيث تذهلك أولاً أناقة الفناء الداخلي المحاط بالأعمدة. وهناك درج جميل ذو عوائد مستقيمة يخلق منظراً ذا تأثير غير متوقع. ومقابل باب المدخل، باب آخر يخترق جدار القصر وينفتح على الريف البعيد.

يبدو وكأنه يرمي بالعقل إلى أراضٍ لا متناهية وأحلام لا حدود لها، من خلال هذه الفتحة المقوسة التي تخطف الأنظار وتحملها بشكل لا يقاوم نحو القمة الزرقاء للجبل الذي يظهر هناك، بعيداً، بعيداً جداً، فوق سهل هائل من أشجار البرتقال.

عندما تدخل إلى الكنيسة، يذهلك في البداية شيء مدهش يفاجئك قبل أن تفهمه، فتشعر بقوته قبل أن تفهمه. إن جمال هذه الكنيسة الصغيرة الملونة والهادئة والنفاذة التي لا تقاوم والتي هي تحفة فنية مطلقة لا يمكن تخيلها، تجعلك لا تتحرك أمام هذه الجدران المغطاة بالفسيفساء الهائلة ذات الخلفية الذهبية، التي تتلألأ بنور خافت وتضيء النصب كله بنور مظلم، فتجذب أفكارك في الحال إلى مناظر كتابية و إلهية حيث ترى واقفاً في سماء من نار كل الذين شاركوا في حياة الإنسان-الإله.

ما يجعل هذه الآثار الصقلية مدهشة للغاية هو أن فن الزخرفة يلفت النظر للوهلة الأولى أكثر من فن العمارة .

فتناغم الخطوط والنسب ليس سوى إطار لتناغم الفروق الدقيقة .

عندما تدخل إلى كاتدرائياتنا القوطية ينتابك شعور شديد يكاد يكون حزيناً. فعظمتها مهيبة، وجلالها يلفت النظر ولكنه ليس مغرياً. أما هنا في هذه الكاتدرائيات القوطية فيستحوذ علينا، ويؤثر فينا ذلك الشيء الحسي الذي يضيفه اللون إلى جمال الشكل .

من المؤكد أن الرجال الذين صمموا وبنوا هذه الكنائس المضيئة والكئيبة في آن واحد كانت لديهم فكرة مختلفة تماماً عن الشعور الديني عن مهندسي الكاتدرائيات الألمانية أو الفرنسية، وكانت عبقريتهم الخاصة مهتمة قبل كل شيء بإدخال ضوء النهار إلى هذه البلاطات المزخرفة بشكل رائع، بحيث لا يشعر به أو يراه، بل يتسلل إلى الداخل، ويرعى الجدران فقط، محدثاً تأثيرات غامضة وساحرة، بحيث يبدو النور وكأنه يأتي من الجدران نفسها، من السماء الذهبية العظيمة التي يسكنها الرسل.

تم بناء كنيسة البلاتين في عام 1132 على يد الملك روجر الثاني على الطراز القوطي النورماندي، وهي عبارة عن بازيليك صغيرة ذات ثلاث بلاطات. يبلغ طولها ثلاثة وثلاثين متراً وعرضها ثلاثة عشر متراً فقط، وهي عبارة عن لعبة وجوهرة بازيليكية .

هناك صفان من الأعمدة الرخامية الجميلة، بألوانها المختلفة، تقودك تحت القبة التي يطل منها المسيح الضخم محاطاً بملائكة بأجنحة ممدودة. اللوحة الفسيفسائية التي تشكل خلفية الكنيسة الجانبية اليسرى هي لوحة مذهلة. وهي تصور القديس يوحنا وهو يعظ في الصحراء. تبدو كأنها لوحة بوفيس دي شافان أكثر زاهية بالألوان وأكثر قوة وأكثر سذاجة وأقل تعمداً من لوحة بوفيس دي شافان التي رسمها فنان ملهم في زمن الإيمان العنيف .

الرسول يتحدث إلى بضعة أشخاص. وخلفه الصحراء، وفي الخلفية بضعة جبال مزرقة، تلك الجبال الناعمة الضائعة في الضباب، المألوفة لكل من سافر إلى الشرق. فوق الرسول، وحول الرسول، وخلف الرسول، سماء ذهبية، سماء معجزة حقيقية حيث يبدو الله حاضراً.

وفي طريق عودتك إلى باب الخروج، تتوقف تحت المنبر، وهو مربع بسيط من الرخام الأحمر، محاط بإفريز من الرخام الأبيض المرصع بالفسيفساء الصغيرة، ومدعوم بأربعة أعمدة مشغولة بدقة. ويتعجب المرء مما يمكن أن يفعله الذوق، ذوق الفنان النقي بالقليل جداً .

وعلاوة على ذلك، يأتي التأثير الرائع لهذه الكنائس من مزيج وتباين الرخام والفسيفساء. هذه هي السمة المميزة لها. إن الجزء السفلي من الجدران

بأكمله أبيض اللون ومزخرف فقط بتصاميم صغيرة وتطريزات حجرية دقيقة تبرز بقوة، من خلال بساطتها، الثراء الملون للموضوعات الكبيرة التي تغطي الجزء العلوي .

ولكن حتى في هذه التطريزات الصغيرة، التي تمتد مثل الدانتيل الملون على طول الجدار السفلي، يمكنك أن ترى أشياء لذيذة بحجم ظهر يدك: طاووسان متقاطعان بمناقيرهما ويحملان صليباً.

يمكن العثور على نفس النوع من الزخارف في العديد من الكنائس في باليرمو. وربما كانت لوحات الفسيفساء في المارتورانا أكثر روعة في التنفيذ من تلك الموجودة في كنيسة باليرمو، ولكن لا توجد حركة واحدة تظهر المجموعة الرائعة التي تجعل هذه التحفة الإلهية فريدة من نوعها .

عدت على مهل إلى فندق النخيل الذي يحتوي على حديقة من أجمل حدائق المدينة، وهي من حدائق البلدان الحارة المليئة بالنباتات الضخمة والغريبة. جلس أحد المسافرين على أحد المقاعد، وقصّ عليّ في لحظات مغامرات العام، ثم عاد بي إلى قصص السنوات الماضية، وقال في جملة واحدة: "كان ذلك عندما كان فاغنر يعيش هنا ."

فأستغربت: "ماذا تقصد هنا، في هذا الفندق؟

-بالطبع. هذا هو المكان الذي كتب فيه الملاحظات الأخيرة لبارسيفال وصحح البراهين .

وعلمت أن الأستاذ الألماني اللامع قضى شتاءً كاملاً في باليرمو، وأنه لم يغادر المدينة إلا قبل وفاته ببضعة أشهر. وكما هو الحال في كل مكان، فقد أظهر هنا شخصيته التي لا تطاق، وكبرياءه الذي لا يصدق، وترك وراءه ذكرى أكثر الرجال الذين لا يطيقون.

كنت أريد أن أرى الشقة التي كان يشغلها هذا الموسيقي العبقري، لأنه بدا لي أنه لا بد أن يكون قد وضع فيها شيئاً من نفسه، وأنني سأجد فيها شيئاً كان يحبه، أو مقعداً مفضلاً لديه، أو الطاولة التي كان يعمل عليها، أو علامة تدل على مروره بها، أو أثر هوس أو علامة عادة .

في البداية لم أر شيئاً سوى شقة فندقية جميلة. وقد أطلعني على التغييرات التي أدخلها عليها، وفي وسط الغرفة الديوان الكبير الذي كان قد رص فيه السجاد اللامع المطرز بالذهب .

لكنني فتحت الباب المؤدي إلى خزانة الثلج .

فانبثق عطر لذيذ وقوي مثل مداعبة النسيم فوق حقل من شجيرات الورد .

قال لي نادل الفندق الذي كان يرشدني: "هذا هو المكان الذي اعتاد أن يعلق فيه غسيله بعد أن يبلله بخلاصة الورد. تلك الرائحة لن تزول أبداً الآن.

تنفست تلك الأنفاس من الزهور، محبوسة في تلك القطعة من الأثاث، منسية هناك، أسيرة؛ وبدا لي أن في تلك الأنفاس التي أحبها شيئاً من فاجنر، شيئاً منه، شيئاً من رغبته، شيئاً من روحه، في ذلك الشيء من العادات السرية العزيزة التي تؤلف حياة الرجل الحميمة .

ثم خرجت لأتجول في المدينة .

لا أحد يشبه النابولي أكثر من الصقلي. ففي النابولي العادي تجد دائماً ثلاثة أرباع النابولي المتسكع. فهو يهتز، ويهتاج، وينفعل دون سبب، ويعبر عن نفسه بالإيماءات بقدر ما يعبر بالكلمات، ويقلد كل ما يقول، ودود دائماً بدافع المصلحة، كريم بدافع الدهاء بقدر ما هو كريم بطبعه، ويرد بلطف على المجاملات غير السارة.

ولكن الصقلي فيه بالفعل الكثير من العربي. ففيه من الجدية ما في الإيطالي، وإن كان فيه من حيوية الروح ما فيه. كما أن كبرياءه الأصلي،

وحبه للألقاب، وطبيعة كبريائه وفراسة وجهه تجعله أقرب إلى الإسباني منه إلى الإيطالي. ولكن الشيء الذي يعطيك دائماً أعمق انطباع عن الشرق بمجرد أن تطأ قدمك صقلية هو جرس الصوت، ونبرة أنف منادي الشوارع .

إنها في كل مكان، تلك النغمة العربية العالية، تلك النغمة التي تبدو وكأنها تنحدر من الجبهة إلى الحلق، بينما في الشمال ترتفع من الصدر إلى الفم. والأغنية الرتيبة العذبة التي تسمع عندما يمر المرء من باب البيت المفتوح هي نفسها إلى حد كبير، من حيث الإيقاع واللهجة، تلك التي يغنيها الفارس الذي يرتدي ملابس بيضاء والذي يرشد المسافرين عبر المساحات الشاسعة العارية في الصحراء .

أما في المسرح، على سبيل المثال، فإن الصقلي يصبح إيطالياً تماماً مرة أخرى، ومن الغريب جداً أن نحضر عرضاً أوبرالياً في روما أو نابولي أو باليرمو.

تنفجر كل انطباعات الجمهور بمجرد أن يختبرها. فالجمهور المتوتر إلى حد الإفراط، والموهوب بأذن مرهفة بقدر ما هي حساسة، والمغرم بالموسيقى بجنون، يصبح كله نوعاً من الوحش المهتز، الذي يشعر ولا يعقل. ففي خلال خمس دقائق يصفق بحماسة ويصفر بحماسة في نفس الممثل، ويضرب

بأقدامه فرحاً أو غضباً، و إذا ما خرجت من حنجرة المغني نغمة خاطئة تخرج من كل فم صرخة غريبة غاضبة عالية النبرة في نفس الوقت. وعندما تنقسم الآراء، يختلط "الصمت" والتصفيق. لا شيء يمر دون أن يلاحظه الجمهور اليقظ المرتعش الذي يعبر عن مشاعره في كل لحظة، وأحياناً يستولي عليه الغضب المفاجئ فيبدأ بالعواء مثل مجموعة من الوحوش الضارية .

كارمن هي شغف الشعب الصقلي في الوقت الحالي، ويمكن سماع أزيز "توريادور" الشهير في الشوارع من الصباح حتى المساء .

شوارع باليرمو ليست شيئاً مميزاً. فهي واسعة وجميلة في الأحياء الغنية، وفي الأحياء الفقيرة تشبه كل الأزقة الضيقة المتعرجة والملونة في مدن الشرق.

تتجاذب النساء المتشحات بالألوان الزاهية من الخرق الحمراء أو الزرقاء أو الصفراء أطراف الحديث أمام أبوابها ويراقبنك وأنت تمر من أمامها وعيونهن السوداء تلمع تحت غابة شعرهن الداكن .

في بعض الأحيان، أمام مكتب اليانصيب الرسمي، الذي يعمل بشكل دائم كخدمة دينية ويجلب الكثير من الإيرادات للدولة، هناك مشهد مضحك ونموذجي .

أمامها السيدة العذراء، في محرابها، معلقة على الحائط، والفانوس يضيء عند قدميها. يخرج رجل من المكتب، وبيده ورقة اليانصيب، ويضع قرشاً في الصندوق المقدس الذي يفتح فمه الأسود الصغير أمام التمثال، ثم يوقع على الورقة المرقمة التي أوصى بها العذراء للتو، مدعماً ذلك بصدقة .

وأثناء سيرك من مكان إلى آخر، مروراً بالتجار الذين يبيعون مناظر صقلية، تصادفك صورة غريبة تصور ممراً تحت الأرض مليئاً بالموتى، هياكل عظمية متجهمة ترتدي ملابس غريبة. مكتوب تحتها :

"مقبرة الكبوشيين."

ما هذا؟ إذا سألت أحد سكان باليرمو، أجابك باشمئزاز: (لا تذهب لترى هذا الرعب). إنه شيء فظيع ووحشي سيختفي قريباً لحسن الحظ. كما أن الناس لم يدفنوا فيه منذ عدة سنوات حتى الآن .

من الصعب الحصول على معلومات أكثر تفصيلاً ودقة في هذا الشأن، حيث يبدو أن معظم الصقليين يمقتون هذه السراديب الاستثنائية .

ولكن هذا ما عرفته في النهاية .

إن الأرض التي بُني عليها دير الكبوشيين لها خاصية غريبة تتمثل في تسريع تحلل لحم الميت إلى حد أنه في غضون عام لا يتبقى على العظام سوى القليل من الجلد الأسود الجاف، الذي جف وتلاصق معاً، والذي يحتفظ أحياناً بشعر اللحية والخدين .

وهكذا تحبس التوابيت في أقبية جانبية صغيرة، كل منها يحتوي على ثمانية أو عشرة موتى، وعندما تنتهي السنة يفتح التابوت وتخرج المومياء وهي مومياء رهيبة ملتحية متشنجة تبدو صارخة في ألم فظيع. ثم يتم تعليقها في إحدى صالات العرض الرئيسية، حيث تأتي العائلة لزيارتها من وقت لآخر. فالأشخاص الذين أرادوا أن يتم حفظهم بطريقة التجفيف هذه طلبوا ذلك قبل وفاتهم، وسيظلون مصطفين إلى الأبد تحت هذه الأقبية المظلمة، مثل الأشياء المحفوظة في المتاحف، مقابل رسوم سنوية يدفعها أقاربهم. وإذا توقف الأهل عن الدفع، يُدفن المتوفى ببساطة بالطريقة العادية .

أردت على الفور زيارة هذه المجموعة الشريرة من الموتى .

عند باب دير صغير متواضع المظهر، استقبلني راهب عجوز يرتدي رداءً بني اللون، سبقني دون أن ينبس ببنت شفة، وهو يعلم جيداً ما يريد الأجانب الذين يأتون إلى هذا المكان أن يروه .

مررنا من خلال كنيسة صغيرة فقيرة ونزلنا ببطء على درج حجري عريض .

وفجأة رأيت أمامنا معرضاً هائلاً عريضاً ومرتفعاً تصطف على جدرانه هياكل عظمية ترتدي ملابس غريبة وبشعة. بعضها معلق جنباً إلى جنب في الهواء، والبعض الآخر مستلقٍ على خمسة ألواح حجرية، الواحد فوق الآخر، من الأرض إلى السقف. يقف طابور من الموتى على الأرض، طابور متراص تبدو رؤوسهم المروعة وكأنها تتكلم. بعضهم تأكله النباتات البشعة التي شوهت فكيه وعظامه أكثر، والبعض الآخر احتفظ بشعره، والبعض الآخر احتفظ بقليل من الشارب، والبعض الآخر بخصلة من اللحية .

بعضهم ينظرون إلى الأعلى بعيونهم الفارغة، والبعض الآخر ينظر إلى الأسفل، وبعضهم يبدو أنه يضحك ضحكاً مرعباً، وبعضهم يتلوى من الألم، وجميعهم يبدون في حالة ذعر ورعب خارقين .

وهم يرتدون ثيابهم، هؤلاء الموتى المساكين، هؤلاء الموتى المساكين البشعين السخيفين، وقد ألبسهم أهلهم الذين أخرجوهم من التابوت ليأخذوا مكانهم في هذا الجمع المروع. جميعهم تقريبًا يرتدون ثيابًا سوداء، وأحيانًا يسدلون القلنسوة على رؤوسهم. ولكن بعضهم كان يرتدي ثياباً أكثر فخامة، وبدا الهيكل العظمي البائس الذي كان يرتدي قلنسوة يونانية مطرزة وملفوفاً في ثوب رجل ثري مستلقياً على ظهره وكأنه نائم نوماً مرعباً وهزلياً .

وكانت علامة رجل أعمى معلقة حول عنقيهما تحمل اسميهما وتاريخ وفاتهما. هذه التواريخ ترسل الرعشات أسفل عمودك الفقري. مكتوب: 1880- 1881-1882 .

ها هو رجل، ماذا كان رجلاً قبل ثماني سنوات؟ كان يعيش، يضحك، ويتحدث، ويأكل، ويشرب، وكان مليئًا بالبهجة والأمل. وها هو ذا! أمام هذا الطابور المزدوج من الكائنات التي لا توصف، توابيت وصناديق مكدسة، توابيت فاخرة من الخشب الأسود، عليها زخارف نحاسية ونوافذ صغيرة ترى ما بداخلها. قد تظن أنها صناديق وحقائب متوحشة يشتريها من بعض البازارات أولئك الذين ينطلقون في رحلة عظيمة، كما كانوا يقولون في الأيام الخوالي .

لكن الأروقة الأخرى تنفتح على اليمين واليسار، لتمتد هذه المقبرة الهائلة تحت الأرض إلى ما لا نهاية .

هنا النساء أكثر سخرية من الرجال، لأنهن قد تزيّنّ بالغنج. تبرز اليدان كجذور الشجر المقطوعة من الأكمام و من الثوب الجديد، وتبدو الجوارب فارغة تحيط بعظام الساقين. وأحياناً لا يرتدي الميت إلا حذاءً، حذاءً كبيراً جداً لتلك القدمين الجافتين المسكينتين .

ها هن الفتيات الصغيرات، القبيحات في ثيابهن البيضاء، يرتدين تاجاً معدنياً حول جباههن، رمز البراءة. إنهن يبدون كبيرات في السن، كبيرات جداً لدرجة أنهن يتجهمن. إنهن في السادسة عشرة، الثامنة عشرة، العشرين. يا له من رعب !

ثم نصل إلى معرض مليء بالتوابيت الزجاجية الصغيرة - هؤلاء هم الأطفال. لم تستطع العظام، بالكاد صلبة، أن تقاوم. وأنت لا تعرف حقًا ما الذي تنظر إليه، إنهم مشوهون جدًا، مسحوقون ومفزعون، هؤلاء الأطفال البائسون. لكن الدموع تنهمر من عينيك، لأن الأمهات قد ألبسنهم أزياءهم الصغيرة التي كانوا يرتدونها في الأيام الأخيرة من حياتهم. وهكذا يأتين لرؤية أطفالهن مرة أخرى!

تطلّ عليك رؤوسهنّ متشابكة في قلنسوات من الدانتيل والشريط، بيضاء كالثلج حول وجوههنّ السوداء المتعفنة التي نخرها عمل الأرض الغريب. وغالباً ما تعلق بجانب الجثة صورة فوتوغرافية تظهرها كما كانت، ولا شيء أكثر لفتاً للنظر، وأكثر رعباً من هذا التباين، وهذه المقارنة، ومن الأفكار التي توقظها فينا هذه المقارنة .

نمر من خلال معرض أكثر قتامة وأسفل، يبدو أنه مخصص للفقراء. في زاوية مظلمة، يوجد حوالي عشرين منهم معاً، معلقين تحت كوة تهب عليهم الهواء الخارجي. يرتدون نوعاً من القماش الأسود، مربوطون من القدمين والرقبة ومنحنون على بعضهم البعض. يبدون وكأنهم يرتجفون، وكأنهم يريدون إنقاذ أنفسهم، وكأنهم يصرخون "النجدة! إنهم يبدون كطاقم سفينة غريقة، لا يزالون يرتجفون من شدة الرياح، ملفوفين بقماش القطران البني الذي يرتديه البحارة في العواصف، ولا يزالون يرتجفون من رعب اللحظة الأخيرة التي استولى عليهم فيها البحر.

هذا هو حي الكهنة. معرض شرف عظيم! للوهلة الأولى، يبدو أنهم أكثر رعباً من الآخرين، مغطين بزخارفهم السوداء والحمراء والأرجوانية المقدسة. لكنك عندما تنظر إليهم واحداً تلو الآخر، تنتابك ضحكة عصبية لا تقاوم من

مواقفهم الغريبة والهزلية الشريرة. بعضهم يغني وبعضهم يصلي. رؤوسهم مرفوعة وأيديهم متشابكة. إنهم يرتدون البيريتا الرسمية التي توضع على جباههم النحيلة وتنحني أحيانًا على آذانهم بطريقة مرحة وأحيانًا أخرى تنخفض إلى أنوفهم. إنه كرنفال من الموت، ويزداد الأمر هزلية بسبب الثراء المذهّب لأزياء الكهنة .

من وقت لآخر، على ما يبدو، يتدحرج رأس على الأرض، بعد أن تكون الفئران قد أكلت أربطة العنق. تعيش آلاف الفئران في هذه المقبرة الجماعية البشرية .

يظهر لي رجل توفي عام 1882 .

كان قد جاء قبل بضعة أشهر، مبتهجًا وبصحة جيدة، ليختار مكانه، برفقة صديق له: "سأكون هناك"، قالها وهو يضحك .

الآن يعود الصديق بمفرده ويحدق لساعات في الهيكل العظمي الساكن الواقف في المكان المحدد.

في بعض أيام الأعياد، تُفتح سراديب الموتى الكبوشية للجمهور. ذات مرة نام أحد السكارى هناك واستيقظ في منتصف الليل، فنادى وصرخ في رعب

وركض في كل الاتجاهات محاولاً الهرب. لكن لم يسمعه أحد. في الصباح وُجد متشبثًا بإحكام بقضبان بوابة المدخل لدرجة أنه استغرق جهدًا طويلًا لتحريره .

كان مجنوناً .

ومنذ ذلك اليوم، تم تعليق جرس كبير بالقرب من البوابة .

بعد هذه الزيارة المشؤومة، شعرت بالرغبة في رؤية بعض الزهور، فأخذت نفسي إلى فيلا تاسكا التي تقع حدائقها وسط بستان برتقال، وهي مليئة بالنباتات الاستوائية الرائعة .

وفي طريق عودتي نحو باليرمو، رأيت على يساري بلدة صغيرة في وسط تل، وعلى قمتها خراب. هذه البلدة هي مونريالي، وهذه الخرابة هي كاستيلاتشيو، آخر ملجأ اختبأ فيه قطاع الطرق الصقلي، كما قيل لي.

كتب الشاعر البارع تيودور دي بانفيل رسالة في العروض الفرنسي، يجب أن يحفظها عن ظهر قلب كل من يتجرأ على أن يجعل كلمتين على قافية واحدة. وقد جاء أحد الفصول من هذا الكتاب الممتاز تحت عنوان:رخص شعريّة "Des licences poétiques"

اقلب الصفحة واقرأ: لا يوجد ."Il n'y en a pas"

وعندما تصل إلى صقلية تسأل بفضول أحياناً، وأحياناً أخرى بقلق: "أين قطاع الطرق"، فيجيبك الجميع: "لم يبقَ أحد ."

في الواقع، لم يكن هناك أي منهم منذ خمس أو ست سنوات. وبفضل التواطؤ الخفي لعدد قليل من كبار ملاك الأراضي الذين كانوا يخدمون مصالحهم في كثير من الأحيان والذين كانوا في كثير من الأحيان أيضاً يطلبون الفدية، استطاعوا الصمود في جبال صقلية حتى وصول الجنرال بالافيتشيني الذي لا يزال يقود باليرمو. ولكن هذا الضابط طاردهم وتعامل معهم بحزم شديد حتى اختفى آخرهم في فترة قصيرة من الزمن.

صحيح أن السرقات المسلحة وجرائم القتل كثيراً ما تحدث في هذا البلد، ولكن هذه جرائم شائعة يرتكبها مجرمون منعزلون وليس عصابات منظمة كما كان يحدث في الماضي .

وباختصار، فإن صقلية آمنة للمسافر مثلها مثل إنجلترا أو فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا، وعلى أولئك الذين يريدون المغامرات على طريقة فرا ديافولو أن يبحثوا في مكان آخر .

في الحقيقة، الإنسان آمن في كل مكان تقريباً، باستثناء المدن الكبرى. ولو أردنا أن نحصي عدد المسافرين الذين اعتقلهم قطاع الطرق في البراري وسلبوهم والذين قتلهم قطاع الطرق في الصحراء، ولو قارنا الحوادث التي تقع في البلاد التي تعتبر خطرة بتلك التي تقع في شهر واحد في لندن أو باريس أو نيويورك لرأينا كم هي بريئة في هذه المناطق المخيفة.

الخلاصة: إذا كنت تبحث عن عمليات الطعن والاعتقالات، اذهب إلى باريس أو لندن، ولكن لا تأتي إلى صقلية. في هذا البلد، يمكنك التجول في الطرقات، ليلاً ونهارًا، بدون حراسة وبدون سلاح، ولا تقابل إلا الأشخاص الذين يعاملون الأجانب بلطف، باستثناء بعض موظفي البريد والتلغراف. أقول هذا فقط لمن هم في كاتانيا، بالمناسبة .

ذلك أن أحد الجبال المطلة على باليرمو له مدينة صغيرة تقع في منتصفه مشهورة بآثارها القديمة، وهي مونريالي: وفي جوار هذه المدينة المرتفعة كان آخر مجرمي الجزيرة يعملون في هذه المدينة. ولا يزال من المعتاد وضع حراس على طول الطريق المؤدي إلى المدينة. هل هذا لطمأنة أم لتخويف المسافرين؟ لا أدري .

يذكرنا الجنود المنتشرون في كل منعطف من الطريق بالحراس الأسطوريين في وزارة الحرب في فرنسا. فعلى مدى عشر سنوات، ودون أن يعرف أحد السبب، كان يتم وضع جندي للحراسة كل يوم في الممر المؤدي إلى شقق الوزير، ومهمته إبعاد جميع المارة عن السور. والآن، جاء وزير جديد، بعقل فضولي، خلفاً لخمسين وزيراً آخر كانوا يمرون دون دهشة أمام الجندي، فسأل عن سبب هذه المراقبة. لم يستطع أحد أن يخبره، لا رئيس الأركان، ولا رؤساء المكاتب الذين ظلوا ملتصقين بكراسيهم لمدة نصف قرن. لكن أحد الحراس، وهو رجل ذاكرة، ربما كان يكتب مذكراته، تذكر أن جندياً كان قد وضع هناك في الماضي، لأن الحائط كان قد أعيد طلاؤه للتو، وكانت زوجة الوزير قد لطخت ثوبها عليه وهي لا تدري. كان الطلاء قد جفّ، لكن الحارس بقي .

وهكذا اختفى قطاع الطرق، لكن الحراس بقوا على الطريق المؤدي إلى مونريالي .

ينحني الطريق حول الجبل ويصل في النهاية إلى المدينة التي تبدو أصيلة جداً وملونة جداً وقذرة جداً. تبدو الشوارع المتدرجة وكأنها مرصوفة بأسنان حادة. رؤوس الرجال ملفوفة بالمناديل الحمراء على الطراز الإسباني .

هنا الكاتدرائية، وهي عبارة عن نصب تذكاري عظيم، يزيد طوله عن مائة متر، على شكل صليب لاتيني، مع ثلاثة أبراج وثلاثة بلاطات يفصل بينها ثمانية عشر عموداً من الجرانيت الشرقي ترتكز على قاعدة رخامية بيضاء وقاعدة رخامية رمادية مربعة. يحيط بالبوابة الرائعة حقًا أبواب برونزية رائعة من صنع بونانوس، سيفيز بيسانوس.

يُعد هذا النصب التذكاري من الداخل أحد أكثر الأمثلة اكتمالاً وثراءً و إبهاراً في الزخارف الفسيفسائية ذات الخلفية الذهبية.

تغطي هذه الفسيفساء، وهي الأكبر في صقلية، الجدران بالكامل على مساحة ستة آلاف وأربعمائة متر. تخيلوا فقط هذه الزخارف الهائلة والرائعة التي تصور في جميع أنحاء الكنيسة القصة الرائعة للعهد القديم والمسيح والحواريين. في مقابل السماء الذهبية التي تفتح أفقاً رائعاً في جميع أنحاء البلاطات يمكنك أن ترى الأنبياء الكبار الذين يبشرون بالله والمسيح القادم والذين عاشوا حوله .

في الجزء الخلفي من الجوقة، يهيمن تمثال هائل ليسوع الذي يشبه فرنسيس الأول على الكنيسة بأكملها، ويبدو أنه يملأها ويسحقها، فهذه الصورة الغريبة هائلة وقوية جداً .

من المؤسف أن السقف الذي دمرته النيران قد أعيد بناؤه بشكل أخرق .

إن درجة التذهيب المبهرجة والألوان الزاهية المفرطة في التذهيب لا تسر الناظرين .

بالقرب من الكاتدرائية، تدخل إلى الدير البينديكتيني القديم.

وعلى الذين يحبون الأديرة أن يتنزهوا في هذه الدير، وسينسون كل الأديرة الأخرى التي سبقتها .

كيف يمكن لأحد أن يعجز عن عشق الأديرة، تلك الأماكن الهادئة المغلقة الباردة التي يبدو أنها خُلقت لتولد الأفكار التي تتدفق من الشفاه عميقة صافية وأنت تسير ببطء تحت الأقواس الطويلة الكئيبة؟

كم يبدو أنها قد خلقت لتوليد الأفكار، هذه الأزقة الحجرية، هذه الأزقة ذات الأعمدة الصغيرة التي تحيط بحديقة صغيرة تريح العين دون أن تضلها، دون أن تجذبها بعيداً، دون أن تشتت انتباهها !

ولكن الأديرة في بلادنا تتسم أحياناً بقسوة رهبانية مفرطة في الرهبانية، وحزينة في الحزن حتى أجملها مثل أديرة سان واندرل في نورماندي. إنها تعصر القلب وتظلم الروح .

اذهب وزر الدير الموحش في دير لا فيرن الكارثوسي في جبال موريس البرية. إنها تقشعر لها الأبدان.

ومن ناحية أخرى، يمنحك دير مونريالي الرائع شعوراً بالنعمة لدرجة أنك ترغب في البقاء فيه إلى ما لا نهاية تقريباً. إنه كبير جداً، مربع بالكامل، ذو أناقة رقيقة وجميلة؛ ومن لم يره لا يستطيع أن يخمن ما هو تناغم الرواق. إن التناسب البديع، والنحافة المذهلة لكل هذه الأعمدة الخفيفة اثنين اثنين، جنباً إلى جنب، وكلها مختلفة، بعضها مكسو بالفسيفساء، وبعضها الآخر عاري؛ وبعضها مغطى بمنحوتات ذات براعة لا تضاهى، وبعضها الآخر مزين بتصميم حجري بسيط يلتف حولها كنبات متسلق، يدهش العين، ثم يسحرها، ويطربها، ويبعث فيها تلك البهجة الفنية التي تبعثها الأشياء ذات الذوق المطلق في النفس من خلال العينين .

ومثل كل هذه الأزواج اللطيفة من الأعمدة، فإن كل التيجان مختلفة في صياغتها الساحرة. ونحن نتعجب في الوقت نفسه، وهو أمر نادر الحدوث، من التأثير الرائع في الجملة و إتقان التفاصيل.

لا يمكنك أن تنظر إلى هذه التحفة الفنية الحقيقية ذات الجمال الرشيق دون أن تفكر في أبيات فيكتور هوجو عن الفنان الإغريقي الذي عرف كيف يضع

شيئاً جميلاً كابتسامة الإنسان على صورة البروبيليا. هذا الدير الإلهي محاط بأسوار عالية وقديمة جداً ذات أقواس عوجية؛ وهذا كل ما تبقى من الدير اليوم .

صقلية هي الموطن الحقيقي للأعمدة. تحتوي جميع باحات القصور والمنازل القديمة في باليرمو على أعمدة رائعة من شأنها أن تكون مشهورة في أي مكان آخر غير هذه الجزيرة الغنية بالآثار .

إن الدير الصغير لكنيسة سان جيوفاني ديجلي إريميتي، وهي واحدة من أقدم الكنائس النورماندية ذات الطابع الشرقي، على الرغم من أنها أقل روعة من كنيسة مونريالي، إلا أنها لا تزال أفضل بكثير من أي شيء أعرفه مماثل.

عند مغادرة الدير، تدخل الحديقة، حيث يمكنك أن تهيمن من هناك على الوادي بأكمله المليء بأشجار البرتقال المزهرة. يتصاعد نسيم متواصل من الغابة العطرة، نسيم يبلبل الروح ويربك الحواس. تبدو الرغبة المترددة والشاعرية التي تسكن النفس البشرية على الدوام، والتي تتربص بك، محمومة ومراوغة، على وشك أن تتحقق. تلفك هذه الرائحة فجأة، وتجمع بين الإحساس المرهف للعطر والبهجة الفنية للروح، وتلقي بك لثوانٍ معدودة في حالة من رفاهية العقل والجسد تكاد تكون سعادة .

نظرت إلى الجبل العالي المطل على المدينة فرأيت على قمته الخراب الذي رأيته في اليوم السابق. سأل صديق كان معي السكان المحليين عنها فأخبرونا أن هذه القلعة القديمة كانت بالفعل الملجأ الأخير لقطاع الطرق الصقليين. وحتى اليوم، لا يكاد أحد يصعد إلى هذه القلعة القديمة التي تسمى كاستيلاشيو .

لا يكاد يكون المسار معروفاً حتى، حيث يقع على قمة تل يتعذر الوصول إليه. نريد الذهاب إلى هناك.

وقد أصر أحد البالرمانيين الذي كان يشرفنا بشرف بلده على أن يعطينا دليلاً لنا، ولم يجد دليلاً يبدو أنه كان واثقاً من الطريق، فتوجه بنفسه دون أن ينبهنا إلى رئيس الشرطة .

وسرعان ما بدأ ضابط لم نعرف مهنته في تسلق الجبل معنا .

ولكنه تردد في أمره، وفي الطريق أخذ رفيقا له، وهو دليل جديد سيقود الأول. ثم سأل الاثنان الفلاحين الذين قابلوهما عن الاتجاهات، والنساء اللاتي مررن يدفعن حماراً أمامهن. وأخيراً، نصحنا أحد الكهنة بالتقدم إلى الأمام مباشرة. وصعدنا، وتبعنا السائقان .

أصبح الطريق شبه مسدود. كان علينا تسلق الصخور وسحب أنفسنا من أحذيتنا. واستمر ذلك لفترة طويلة. كانت الشمس الحارقة، شمس شرقية حارقة، تضرب على رؤوسنا .

وأخيراً وصلنا إلى القمة، وسط فوضى مدهشة ورائعة من الحجارة الهائلة، رمادية أو صلعاء أو مستديرة أو مدببة، تبرز من الأرض وتسجن القلعة البرية المتهدمة في جيش غريب من الصخور.

تمتد في المسافة، من جميع الجهات، حول الأسوار .

المنظر من هذه القمة هو واحد من أكثر المناظر الخلابة التي يمكن أن تجدها. تحيط بالجبل الشائك وديان عميقة تحيط بها جبال أخرى في كل مكان، ويتسع أفق لا نهائي من القمم والقمم نحو داخل صقلية. أمامنا البحر، وعند أقدامنا باليرمو. يحيط بالمدينة بستان البرتقال المعروف باسم كونشا دورو (المحارة الذهبية)، ويمتد هذا البستان ذو الخضرة السوداء كالبقعة السوداء عند سفح الجبال الرمادية، الجبال الحمراء التي تبدو محترقة ومحتقنة ومذهبة بالشمس وهي عارية وملونة .

اختفى أحد مرشدينا. والآخر يتبعنا إلى داخل الأطلال. إنها وحشية وشاسعة للغاية. عندما تدخل، ينتابك شعور بأن لا أحد يزورها. في كل مكان، تهدر الأرض المجوفة تحت الأقدام؛ وفي بعض الأماكن، يمكنك رؤية مدخل الممرات تحت الأرض.

يتفحصهم الرجل بفضول ويخبرنا أن العديد من قطاع الطرق كانوا يعيشون هناك قبل بضع سنوات. لقد كانت أفضل ملاجئهم وأكثرها رعباً. وبمجرد أن أردنا العودة إلى أسفل، عاد الدليل الأول إلى الظهور؛ ولكننا رفضنا خدماته، واكتشفنا بسهولة طريقاً عملياً جداً يمكن حتى للنساء أن يسلكنه .

ويبدو أن الصقليين قد استمتعوا كثيراً بتضخيم قصص قطاع الطرق وتكثيرها لتخويف الأجانب؛ وحتى اليوم يتردد الناس في دخول هذه الجزيرة التي هي هادئة مثل سويسرا .

و إليك واحدة من أحدث المغامرات التي تنسب إلى قطاع الطرق الأشرار. وأنا أؤكد أنها صحيحة .

فقد اكتشف عالم حشرات متميز جداً من باليرمو، وهو السيد راجوزا، خنفساء اختلطت عليه طويلاً مع خنفساء (بوليفلا أوليفيري).

وأدرك عالم ألماني هو السيد كراتز أنها تنتمي إلى فصيلة متميزة جداً، فرغب في الحصول على بعض العينات وكتب إلى أحد أصدقائه في صقلية وهو السيد دي ستيفاني الذي كتب بدوره إلى السيد جوزيبي ميراغليا يطلب منه أن يلتقط بعض هذه الحشرات. ولكنها كانت قد اختفت من الساحل. في ذلك الوقت فقط، أعلن السيد لومباردو مارتورانا من تراباني للسيد دي ستيفاني أنه استولى لتوه على أكثر من خمسين بوليفيللا .

سارع السيد دي ستيفاني إلى إبلاغ السيد ميراغليا في الرسالة التالية: "عزيزي جوزيف، إن البوليفيللا أوليفييري، بعد أن علمت بنواياك القاتلة، سلكت طريقاً آخر وهربت إلى ساحل تراباني، حيث قام صديقي لومباردو بالقبض على أكثر من خمسين فرداً ."

هنا، تأخذ المغامرة طابعًا تراجيديًا ملحميًا غير قابل للتصديق .

في ذلك الوقت، كان يتردد على ما يبدو على المنطقة المحيطة بتراباني قاطع طريق يدعى لومباردو .

ألقى السيد ميراغليا رسالة صديقه في السلة. أفرغ الخادم السلة في الشارع، ثم مر جامع القمامة وأخذ ما جمعه إلى السهل. رأى أحد الفلاحين ورقة زرقاء

جميلة تكاد تكون مجعدة في الريف، فالتقطها ووضعها في جيبه، إما احتياطاً أو بدافع الحاجة الغريزية إلى الربح .

ومرت عدة شهور، ثم ترك هذا الرجل هذه الرسالة بعد أن استدعاه أحد رجال الشرطة إلى الاستجواب، فألقاها على الأرض. فقبض عليها أحد رجال الدرك وقدمها إلى القاضي الذي توقف عند الكلمات: "نوايا قاتلة"، "سلك طريقاً آخر"، "لاجئون"، "أسرى"، "لومباردو". تم سجن الفلاح واستجوابه واحتجازه بمعزل عن العالم الخارجي. ولم يعترف بأي شيء. وظل رهن الاحتجاز وتم فتح تحقيق صارم معه. ونشر القضاة الرسالة المشبوهة، ولكن لم يتأثر علماء الحشرات لأنهم قرأوا "بترونيلا أوليفييري" بدلاً من "بوليفيلا ."

وأخيراً، تم فك شفرة توقيع السيد دي ستيفاني وتم استدعاؤه إلى المحكمة. ولم تُقبل تفسيراته. أما السيد ميراغليا الذي استدعي بدوره، فقد أوضح اللغز أخيراً .

لقد قضى الفلاح ثلاثة أشهر في السجن. كان أحد آخر قطّاع الطرق الصقليين في الواقع نوعاً من أنواع الجعل المعروف لدى من العلماء باسم بوليفيلا راغوزا .

لا يوجد شيء أقل خطورة اليوم من السفر عبر صقلية المخيفة هذه، سواء بالسيارة أو على ظهور الخيل أو حتى سيراً على الأقدام. يمكن القيام بجميع الرحلات الأكثر إثارة للاهتمام بالسيارة بالكامل تقريباً. الأولى إلى معبد سيجيستا .

لقد تغنى شعراء كثيرون باليونان حتى أن كل واحد منا يحمل صورة لها في داخله، وكل واحد منا يظن أنه يعرف عنها قليلاً، وكل واحد منا يلمحها في الحلم كما يشتهي أن تكون .

أما أنا، فقد حققت لي صقلية هذا الحلم؛ لقد أرتني اليونان؛ وعندما أفكر في هذه الأرض التي تتسم بالفنون، يبدو لي أنني أرى جبالاً عظيمة ذات خطوط ناعمة، خطوط كلاسيكية، وعلى قممها معابد، تلك المعابد الشديدة، تلك المعابد الثقيلة بعض الشيء ربما، ولكنها مهيبة بشكل مثير للإعجاب، والتي توجد في كل مكان في هذه الجزيرة.

لقد رأى الجميع معبد بستوم وأعجبوا بالآثار الثلاثة الرائعة التي تقع في هذا السهل العاري الذي يمتد على مسافة من البحر، والذي تحيط به من الجانب الآخر دائرة واسعة من الجبال الزرقاء. ولكن إذا كان معبد نبتون أكثر حفظاً وأنقى (كما يقال) من معابد صقلية، فإن هذه المعابد تقع في مناظر طبيعية

رائعة جداً وغير متوقعة بحيث لا يمكن لأي شيء في العالم أن يترك في النفس ذلك الانطباع الذي تتركه في الذهن .

عند مغادرتك باليرمو، تصل أولاً إلى بستان البرتقال الشاسع المعروف باسم المحارة الذهبية؛ ثم تتبع السكة الحديدية الخط الساحلي، وهو خط ساحلي من الجبال المحمرة والصخور الحمراء .

وأخيراً، ينحدر المسار نحو داخل الجزيرة وتنزل في محطة الكامو-كالاتافيمي .

ثم تنطلق، عبر بلدٍ رفعته أمواج وحشية لا حراك فيها كالبحر. لا غابات ولا أشجار كثيرة، بل كروم ومحاصيل؛ والطريق يتسلق بين خطين متواصلين من الصبار المزهر. وكأن أمراً قد صدر بينهما ليجعلهما ينبتان نحو السماء، في نفس العام، وفي نفس اليوم تقريباً، ذلك العمود الهائل العجيب الذي تغنى به الشعراء كثيراً. وعلى مدّ البصر، يمكنك أن تتابع على مدّ بصرك، تلك الحشود اللامتناهية من هذه النباتات المحاربة، الكثيفة، الحادة، المدججة بالسلاح والمدرعة، التي تبدو وكأنها تحمل راية المعركة.

وبعد نحو ساعتين من السير في الطريق، ترى فجأة جبلين مرتفعين، يربط بينهما منحدر لطيف، مستديرين على شكل هلال من قمة إلى أخرى، وفي وسط هذا الهلال، صورة معبد يوناني، من تلك الآثار القوية الجميلة التي أقامها الشعب الإلهي لآلهته البشرية .

و إذا ما أخذت جولة طويلة حول أحد هذه الجبال فسوف تصادف المعبد مرة أخرى. إنه يبدو الآن وكأنه يتكئ على الجبل، و إن كان يفصله عنه واد عميق؛ ولكن الجبل يمتد من خلفه وفوقه ويحتضنه ويحيط به ويبدو كأنه يحميه ويداعبه. وهو يبرز بشكل مثير للإعجاب، بأعمدته الستة والثلاثين ذات الأعمدة الدورية، في مقابل الأقمشة الخضراء الهائلة التي تشكل خلفية للنصب التذكاري الهائل، الذي يقف وحيداً في هذا الريف الذي لا حدود له .

تشعر، عندما ترى هذا المنظر الفخم والبساطة التي لا يمكن أن يوضع فيها إلا معبد إغريقي ولا يمكن أن يوضع إلا هنا. وقد أظهر أساتذة الزخرفة الذين علّموا الفن للبشرية، ولا سيما في صقلية، ما كان لديهم من معرفة عميقة ودقيقة بالتأثير والتركيب. سأتحدث عن معابد جيرجنتى بعد قليل. ويبدو أن المعبد الذي في سيجستا قد وضعه في سفح هذا الجبل رجل عبقري كان له

وحي في النقطة الفريدة التي كان من المقرر أن يقام فيها. إنه وحده الذي يبعث الحياة في ضخامة المنظر الطبيعي، ويجعلها تنبض بالحياة ويجعلها جميلة بشكل إلهي .

وعلى قمة الجبل، الذي تتبع سفحه للوصول إلى المعبد، توجد أطلال المسرح .

عندما تزور بلداً سكنه الإغريق أو استعمروه، فما عليك إلا أن تبحث عن مسارحهم لتجد أجمل المناظر. فإذا كانوا قد وضعوا معابدهم في المكان الذي يمكن أن يعطي أكبر قدر من التأثير، حيث يمكن أن يزين الأفق بأجمل ما يكون، فقد وضعوا على العكس من ذلك مسارحهم في المكان الذي يمكن أن تحرك العين بأجمل المناظر.

تشكل سيجيستا، في قمة جبل، مركز مدرج من الجبال التي يصل محيطها إلى ما لا يقل عن مائة وخمسين إلى مائتي كيلومتر. يمكن رؤية قمم أخرى من بعيد، خلف القمم الأولى؛ ومن خلال خليج واسع أمامك، يظهر البحر أزرق اللون بين القمم الخضراء .

في اليوم التالي لرؤيتك سيجيستا، يمكنك زيارة سيلينونتي، وهي كتلة هائلة من الأعمدة المتداعية، التي تسقط أحياناً في صف، جنباً إلى جنب، مثل الجنود القتلى، وأحياناً تنهار في فوضى .

هذه الأطلال من المعابد العملاقة، وهي الأكبر في أوروبا، تملأ سهلاً بأكمله ولا تزال تغطي سفح تل في نهاية السهل. وهي تتبع خط الشاطئ، وهو شاطئ طويل من الرمال الشاحبة، حيث تقطعت السبل ببعض قوارب الصيد، دون أي علامة تدل على مكان إقامة الصيادين. لا يمكن أن تكون هذه الكتلة من الحجارة التي لا شكل لها إلا موضع اهتمام علماء الآثار أو النفوس الشاعرة التي تحركها كل آثار الماضي.

ولكن أغريجنتو، أغريجنتو القديمة، التي تقع مثل سيلينونتي على الساحل الجنوبي لصقلية، تضم أروع مجموعة من المعابد التي يمكن رؤيتها .

فعلى حافة ساحل صخري طويل، عاري وأحمر، أحمر ناري، لا توجد فيه ورقة عشب أو شجيرة واحدة، وتهيمن على البحر والشاطئ والميناء، ثلاثة معابد رائعة، تُرى من أسفل، وتظهر ظلالها الحجرية العظيمة على السماء الزرقاء في البلدان الدافئة .

تبدو وكأنها تقف في الهواء، وسط منظر طبيعي رائع ومقفر. كل شيء ميت، قاحل وأصفر، حولهم، أمامهم وخلفهم. لقد أحرقت الشمس الأرض وأكلتها .

هل هي الشمس التي أكلت التربة أم النار العميقة التي لا تزال مشتعلة في عروق هذه الجزيرة ذات البراكين؟ لأن كل ما حول جيرجينتي يمتد حول الأرض الفريدة لمناجم الكبريت. هنا، كل شيء كبريتي، الأرض، الحجارة، الرمال، كل شيء.

وهي المعابد، مساكن الآلهة الأبدية التي ماتت كإخوتها من البشر، على تلها البري على بعد نصف كيلو متر تقريباً .

فهناك أولاً معبد جونو لاسينيانا الذي يقال إنه يحتوي على لوحة جونو الشهيرة التي رسمها زيوكسيس الذي اتخذ من أجمل خمس بنات أكراغاس نماذجهن .

ثم هناك معبد كونكورد، وهو أحد أفضل المعابد المحفوظة في العصور القديمة، لأنه كان يستخدم ككنيسة في العصور الوسطى .

ثم هناك بقايا معبد هرقل .

وأخيراً، معبد جوبيتر العملاق، الذي أشاد به بوليبيوس ووصفه ديودوروس، والذي بني في القرن الخامس ويحتوي على ثمانية وثلاثين نصف عمود بمحيط ستة أمتار ونصف المتر. يمكن لرجل أن يقف منتصباً في كل أخدود .

وأنت جالس على الطريق الذي يمتد على طول سفح هذا الساحل المذهل، لا يسعك إلا أن تحلم بهذه الآثار الرائعة التي تذكّرنا بأعظم الشعوب الفنية. وكأنك أمامك أوليمب الأوليمب كله، أوليمب هوميروس وأوفيد وفيرجيل، أوليمب الآلهة الساحرة الجسدية الساحرة، العاطفية مثلنا، المصنوعة مثلنا، التي جسدت بشاعرية كل رقة قلوبنا وكل أحلام أرواحنا وكل غرائز حواسنا.

كل العصور القديمة ترتفع من هذه السماء القديمة. فتتغلغل فيك عاطفة قوية وفريدة من نوعها، كما تتغلغل فيك الرغبة في الركوع أمام هذه البقايا الجليلة، أمام هذه البقايا التي تركها سادة سادتنا .

صحيح أن صقلية هي أولاً وقبل كل شيء أرض إلهية، لأنك إذا كنت تجد هنا المثوى الأخير لجونو والمشتري وعطارد وهرقل، فإنك تجد هنا أيضاً أروع الكنائس المسيحية في العالم. والذكرى التي تبقى من كاتدرائيات سيفالو ومونريالي، وكذلك كنيسة بالاتين، تلك الأعجوبة الفريدة، هي أقوى وأكثر حيوية من ذكرى الآثار اليونانية .

في نهاية التل مع معابد جيرجنتى تبدأ منطقة مدهشة يبدو أنها مملكة الشيطان الحقيقية، لأنه إذا كان الشيطان، كما كان يعتقد في الماضي، يسكن في أرض جوفية شاسعة، مليئة بالكبريت المنصهر، حيث يغلي من الملعونين، فمن المؤكد أنه في صقلية قد أسس مسكنه الغامض.

توفر صقلية تقريباً كل الكبريت في العالم. يمكن العثور على الآلاف من مناجم الكبريت في هذه الجزيرة النارية .

ولكن أولاً، وعلى بعد بضعة كيلومترات من المدينة، تصادف تلّاً غريباً يسمى ماكالوبا، وهو مصنوع من الطين والحجر الجيري، ومغطى بأقماع صغيرة يبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثة أقدام. وهي تبدو مثل البثرات، وهي مرض وحشي من أمراض الطبيعة؛ لأن جميع المخاريط تقطر طيناً حاراً مثل تقيح فظيع للأرض؛ وهي أحياناً تقذف الحجارة من ارتفاع شاهق، وهي تشخر شخيراً غريباً وهي تنفخ الغاز. وتبدو كأنها تزمجر، قذرة وخجلة، براكين صغيرة لقيطة مصابة بالجذام والخراجات المتفجرة .

ثم نزور مناجم الكبريت .

ندخل الجبال. أمامنا أرض خراب، أرض بائسة تبدو ملعونة، مدانة من الطبيعة. الوديان تنفتح، رمادية، صفراء، صخرية، مشؤومة، تحمل علامة التوبيخ الإلهي، مع طابع رائع من العزلة والفقر .

وأخيراً، من مكان إلى آخر، نرى بضعة مبانٍ قبيحة ومنخفضة جداً عن الأرض. هذه هي المناجم. ويبدو أن هناك أكثر من ألف منها في هذا الجزء من البلاد .

عندما تدخل إلى أحدها، أول ما تلاحظه هو كومة غريبة، رمادية اللون ومليئة بالبخار. إنه مصدر حقيقي للكبريت، نتيجة عمل الإنسان .

إليك كيفية الحصول عليه. يكون الكبريت، المأخوذ من المناجم، أسود اللون، ممزوجاً بالتراب والحجر الجيري وغيره، ويشكل نوعاً من الحجر الصلب الهش. وحالما يتم إحضاره من المناجم، تبنى منه كومة عالية، ثم تشعل النار في الوسط. ثم يتم إشعال نار بطيئة ومستمرة وعميقة تأكل وسط الجبل الوهمي لأسابيع متتالية، ويخرج الكبريت النقي الذي يذوب ثم يتدفق مثل الماء عبر قناة صغيرة .

يتم معالجة المنتج الذي يتم الحصول عليه بهذه الطريقة مرة أخرى في أحواض حيث يغلي وينتهي من تنظيف نفسه.

المنجم الذي يتم فيه الاستخراج مثل أي منجم آخر. يؤدي درج ضيق ذو درجات ضخمة غير مستوية إلى أسفل إلى أعمدة محفورة في الكبريت. وترتبط الطوابق المتراكبة بفتحات كبيرة تعطي الهواء للأعمق. ومع ذلك، تشعر في أسفل المنحدر بالاختناق بسبب الأبخرة الكبريتية وحرارة الفرن الرهيبة التي تجعل قلبك يخفق بشدة وتغطي جلدك بالعرق .

من وقت لآخر، بينما تصعد الدرج الوعر، تصادف، مجموعة من الأطفال الذين يحملون السلال. يلهثون ويتأوهون، هؤلاء الأطفال البائسون الذين أرهقهم الحمل. إنهم في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر، ويقومون بهذه الرحلة البغيضة خمس عشرة مرة في اليوم الواحد، ويدفعون قرشاً واحداً عن كل نزول. إنهم صغار، نحيفون، مصفرون، بعيون ضخمة لامعة، ووجوه نحيفة بشفاه رقيقة تظهر أسنانها بريقاً كعيونهم .

هذا الاستغلال المقزز للطفولة هو من أكثر الأشياء إيلاماً التي يمكن أن تراها. ولكن على ساحل آخر من سواحل الجزيرة، أو بالأحرى على بعد ساعات قليلة من الساحل، توجد ظاهرة طبيعية مدهشة لدرجة أنك بمجرد أن

تراها تنسى تلك المناجم المسمومة التي يقتل فيها الأطفال. أنا أتحدث عن بركان البركان، زهرة رائعة من الكبريت التي تفتحت في وسط البحر .

انطلقنا من ميسينا في منتصف الليل في باخرة قذرة، حيث لم يجد ركاب الدرجة الأولى مقاعد للجلوس عليها على سطح السفينة .

لم يكن هناك أي نسمة هواء، فقط حركة السفينة هي التي أزعجت الهواء الهادئ النائم على الماء .

تنضح شواطئ صقلية وكالابريا برائحة زهر البرتقال القوية لدرجة أن المضيق كله معطر مثل غرفة نوم المرأة. وسرعان ما تتلاشى المدينة بعيداً، ونعبر بين تشاربديس وسيلا، وتنخفض الجبال خلفنا، وفوقها تظهر قمة جبل إتنا الثلجية المسحوقة والمكسوة بالثلوج، متوجة بالفضة تحت ضوء القمر المكتمل.

ثم نغفو قليلاً، نغفو قليلاً على صوت المروحة الرتيب لنفتح أعيننا مرة أخرى في ضوء اليوم الجديد.

هناك، أمامنا جزر ليباري. الأولى، على اليسار، والأخيرة، على اليمين، تلقي دخاناً أبيض كثيفاً فوق السماء. هذان هما البركان وسترومبولي. بين هذين

البركانين، يمكنك أن ترى ليباري وفيليكوري وأليكوري وبعض الجزر الصغيرة المنخفضة جداً .

وسيكون المبنى قريباً أمام جزيرة وبلدة ليباري الصغيرة .

عدد قليل من المنازل البيضاء عند سفح ساحل أخضر كبير. لا شيء أكثر من ذلك، لا نزل ولا أجانب ينزلون على هذه الجزيرة .

الجزيرة خصبة وساحرة، وتحيط بها صخور رائعة وغريبة الشكل ذات لون أحمر قوي وناعم في نفس الوقت. وتوجد هنا حمامات حرارية كانت ذات يوم مشهورة جداً، لكن الأسقف توداسو أمر بتدمير الحمامات من أجل حماية بلاده من تدفق الأجانب وتأثيرهم.

تنتهي ليباري، إلى الشمال، بجبل أبيض فريد من نوعه، والذي من بعيد قد يُظن من بعيد أنه جبل من الثلج تحت سماء أكثر برودة .

هذا هو المكان الذي يُستخرج منه حجر الخفاف للعالم كله .

لكنني استأجرت قارباً لزيارة البركان .

يقودها أربعة مجدفين، وهي تتبع الساحل الخصب المزروع بالكروم. انعكاسات الصخور الحمراء غريبة في البحر الأزرق. هنا المضيق الصغير الذي يفصل بين الجزيرتين. يرتفع مخروط البركان من بين الأمواج، مثل بركان غارق حتى رأسه .

إنها جزيرة برية، تبلغ قمتها حوالي أربعمائة متر وتبلغ مساحتها حوالي عشرين كيلومتراً مربعاً. وقبل الوصول إليها، تمرّ بجزيرة أخرى هي جزيرة فولكانيلو التي انبثقت فجأة من البحر حوالي عام 200 قبل الميلاد، والتي يتصل بها شقيقها الأكبر شريط ضيق من الأرض تجتاحه الأمواج في الأيام العاصفة.

نحن هنا في نهاية خليج منبسط، مقابل فوهة البركان المدخنة. وعند سفح الفوهة منزل يسكنه إنجليزي يبدو أنه نائم في هذه اللحظة، و إلا لما استطعت أن أتسلق البركان الذي يستغله هذا الصناعي؛ ولكنه نائم، وأنا أعبر حديقة كبيرة للخضروات، ثم بعض الكروم، التي يملكها الإنجليزي، ثم خشب حقيقي من المكنسة الإسبانية المزهرة. تبدو مثل وشاح أصفر هائل، ملفوف حول مخروط مدبب، ورأسه أصفر أيضاً، أصفر فاقع في ضوء الشمس الساطع. وأبدأ في الصعود على طول طريق ضيّق يتعرّج عبر الرماد والحمم

البركانية، صعودًا وهبوطًا، شديد الانحدار، زلقًا وصعبًا. في بعض الأحيان، تماماً كما ترى السيول تتساقط من قمم سويسرا، تلمح في بعض الأحيان شلالاً من الكبريت الساكن يتدفق من أحد الصدوع .

تبدو كجداول القصص الخيالية والضوء المتجمد، تيارات من أشعة الشمس .

أخيراً، على القمة، أصل إلى منصة واسعة حول الفوهة العظيمة. تهتز الأرض، وأمامي، من خلال فتحة بحجم رأس رجل، يتدفق أمامي نفاثة هائلة من اللهب والبخار تتسرب بعنف، بينما ينتشر الكبريت السائل، الذي تذهبه النار، من شفاه الحفرة. إنه يشكل بحيرة صفراء حول هذا المصدر الرائع الذي سرعان ما يتصلب.

وعلى مسافة أبعد، هناك صدوع أخرى تقذف أيضًا أبخرة بيضاء التي ترتفع بشدة في الهواء الأزرق .

أمشي بخوف فوق الرماد الساخن والحمم البركانية إلى حافة الحفرة العظيمة. لا شيء أكثر إثارة للدهشة يمكن أن يلفت نظر الإنسان .

في قاع هذا الحوض الهائل، المسمى "لا فوسا"، الذي يبلغ عرضه خمسمائة متر وعمقه حوالي مائتي متر، عشرات الشقوق العملاقة والثقوب المستديرة

الواسعة التي تقذف النار والدخان والكبريت مع ضجيج هائل للغلايات. تنزل بمحاذاة جدران هذه الهاوية وتسير حتى حافة أفواه البركان الغاضبة .

كل شيء حولي وتحت قدمي وفوقي أصفر، أصفر فاقع، أصفر مخيف. كل شيء أصفر: الأرض والجدران العالية والسماء نفسها. والشمس الصفراء تصب ضوءها الناري في هذه الهاوية الهائجة التي تلفحني بحرارة هذا الحوض من الكبريت. ويمكنك أن ترى السائل الأصفر يغلي وهو يتدفق، بلورات غريبة تتفتح، أحماض غريبة لامعة تزبد على حافة الشفاه الحمراء من المواقد.

إن الإنجليزي الذي ينام عند سفح الجبل يجمع ويستغل ويبيع هذه الأحماض وهذه السوائل وكل ما تقذفه الفوهة؛ لأن كل هذا فيما يبدو يساوي مالاً، مالاً كثيراً .

أعود ببطء، وأنا ألهث، ألهث، مخنوقاً بأنفاس البركان التي لا تنفّس؛ وسرعان ما أستطيع، بعد أن صعدت إلى قمة المخروط، أن أرى كل جزر ليباري متناثرة على الأمواج .

هناك، في الجهة المقابلة، ترتفع سترومبولي: بينما تبدو جزيرة إتنا العملاقة خلفي وكأنها تراقب أبناءها وأحفادها من بعيد .

في طريق العودة من القارب، اكتشفت جزيرة مختبئة خلف ليباري. أطلق عليها الملاح اسم "سالينا". يتم حصاد نبيذ مالفاسيا هنا .

أردت أن أشرب زجاجة من هذا النبيذ الشهير من منبعه. طعمه مثل شراب الكبريت. إنه نبيذ البراكين، غليظ، حلو، ذهبي ومليء بالكبريت لدرجة أن طعمه يبقى في الحنك حتى المساء: نبيذ الشيطان .

تعيدني الباخرة القذرة التي أحضرتني إلى هنا .

أولاً، أنظر إلى سترومبولي، الجبل مستدير ومرتفع، ورأسه يدخن ورجله تغوص في البحر. إنه ليس سوى مخروط ضخم يرتفع من الماء. على جانبيه، يمكنك أن تتبين بعض المنازل المتشبثة كصدف البحر على ظهر صخرة. ثم تلتفت عيناي إلى صقلية، حيث أعود إلى حيث أعود، ولا تستطيعان أن ترفعا بصرهما عن جبل إتنا الرابض فوقها، يسحقها بثقله الهائل والوحشي، ويعلو فوق كل الجبال الأخرى في الجزيرة برأسه المغطى بالثلوج .

إنها تبدو كالأقزام، هذه الجبال العظيمة تحته، وهو نفسه يبدو منخفضاً جداً من شدة اتساعه وثقله. لفهم أبعاد هذا العملاق الثقيل، عليك أن تراه من البحر المفتوح .

إلى اليسار توجد شواطئ كالابريا الجبلية، وينفتح مضيق ميسينا كمصب نهر. تدخله وسرعان ما تكون في الميناء .

لا يوجد شيء مثير للاهتمام في المدينة. في اليوم نفسه، تستقل القطار إلى كاتانيا. إنه يتبع خطًا ساحليًا مثيرًا للإعجاب، ملتفًا حول خليج غريب تسكنه قرى بيضاء صغيرة في قاع الخلجان وعلى حافة الرمال. هذه هي تاورمينا .

قد يقضي الرجل يوماً واحداً فقط في صقلية ويسأل: "ماذا هناك لتراه؟ سأجيب دون تردد: "تاورمينا ."

إنها ليست سوى منظر طبيعي، ولكنه منظر طبيعي حيث تجد كل ما يبدو أنه خُلق على الأرض ليغري العين والعقل والخيال .

فالقرية جاثمة على جبل كبير كأنها تدحرجت من قمته، ولكنك لا تمر بها إلا مروراً عابراً رغم احتوائها على بعض البقايا الجميلة من الماضي، وتذهب إلى المسرح اليوناني لمشاهدة غروب الشمس .

ويتميز المسرح الموجود في تاورمينا بموقعه الرائع لدرجة أنه ربما لا يوجد مكان آخر مماثل في العالم كله. وبمجرد أن تدخل إلى السور وتزور المسرح، وهو الوحيد الذي وصل إلينا في حالة جيدة من الحفظ، تتسلق الطبقات المتداعية المغطاة بالعشب التي كان يستخدمها الجمهور في يوم من الأيام وكانت تتسع لخمسة وثلاثين ألف متفرج، وتنظر حولك .

في البداية ترى الخراب الحزين والرائع والمتهدم، حيث لا تزال الأعمدة الرخامية البيضاء الساحرة بتيجانها قائمة، ثم ترى من فوق الأسوار البحر تحتك على مد البصر، والشاطئ الممتد حتى الأفق، تتناثر فوقه الصخور الضخمة، وتحده الرمال الذهبية وتسكنه القرى البيضاء؛ ثم على اليمين، فوق كل شيء، مهيمناً على كل شيء، يملأ نصف السماء بكتلته، إتنا مغطاة بالثلوج والدخان، هناك .

أين هم الناس اليوم الذين يمكنهم فعل مثل هذه الأشياء؟ أين الرجال الذين يمكنهم بناء صروح كهذه لتسلية الحشود؟

وعندما تحدثت عن مسرح سيجيستا قلت إن الإغريق عرفوا كيف يختارون المكان الفريد الذي سيبنى فيه المسرح، وهو المكان الذي لا يضاهيه مكان، وهو المكان الذي صنع لإسعاد الحواس الفنية.

أولئك الرجال الذين كانوا في الماضي، كانت أرواحهم وعيونهم روحاً وعيناً لا تشبه أرواحنا وعيوننا، وكان يجري في عروقهم مع دمائهم شيء اختفى: حب الجمال والإعجاب به .

ولكننا عائدون إلى كاتانيا، ومن هناك أريد أن أتسلق البركان .

من وقت لآخر، بين تلين، يمكننا أن نراه من وقت لآخر، بين تلين، تعلوه سحابة ثابتة من البخار المتصاعد من فوهة البركان .

الأرض من حولنا كلها بنية اللون، بلون البرونز. يسير القطار على طول شاطئ الحمم البركانية .

لكن الوحش بعيد جداً، ربما ستة وثلاثين أو أربعين كيلومتراً. تدرك مدى ضخامته. من وقت لآخر، ومن فمه الأسود غير المتناسب، كان يقذف من فمه الأسود غير المتناسب، تياراً ملتهباً من القار الذي كان يتدفق من منحدراته الخفيفة أو السريعة فيملأ الوديان ويدفن القرى ويغرق الرجال كالنهر، ثم يأتي ليقضي على البحر، ويدفعه إلى الوراء أمامه. لقد صنعوا من هذه الأمواج البطيئة المعجونة الحمراء جروفاً وجبالاً ووديانا تزداد قتامة كلما ازدادت صلابة.

انتشرت حول البركان الهائل في كل مكان، بلد أسود وغريب، متصدع، وعر، متعرج، متعرج، غير محتمل، تجتذبه فرصة الانفجارات البركانية والخيال المخيف للحمم البركانية الساخنة .

أحياناً يبقى إتنا هادئاً لعدة قرون، فقط ينفث الدخان الكثيف من فوهته في السماء. ثم، تحت الأمطار والشمس، تسحق الحمم البركانية من التدفقات القديمة، وتصبح نوعاً من الرماد، أرضاً رملية سوداء، حيث تنمو أشجار الزيتون وأشجار البرتقال وأشجار الليمون وأشجار الرمان والكروم والمحاصيل .

ليس هناك ما هو أكثر خضرة وجمالاً وسحراً من أسي ريالي، وسط غابة من أشجار البرتقال والزيتون. ثم، في بعض الأحيان، ومن خلال الأشجار، تلمح أحياناً لمحة من مجرى مائي أسود عريض صمد أمام اختبار الزمن، واحتفظ بأشكاله التي لا تزال تحتفظ بأشكالها الفوارة وتقاطيعها الاستثنائية، ومظهر الوحوش المتشابكة، والأطراف الملتوية.

هذه هي كاتانيا، المدينة الشاسعة والجميلة المبنية بالكامل على الحمم البركانية. من نوافذ فندق جراند هوتيل يمكننا رؤية قمة جبل إتنا بالكامل .

قبل الصعود إلى هناك، دعنا نكتب بضعة أسطر عن تاريخها .

أطلق عليها القدماء اسم ورشة فولكان .

يصف بيندار ثوران البركان عام 476، لكن هوميروس لم يذكره كبركان. ومع ذلك، حتى قبل الحقبة التاريخية، فقد أجبر السكان على الفرار منه. هناك حوالي ثمانين ثوراناً معروفاً .

وكانت أعنفها ثورات 396 و126 و122 قبل الميلاد، تليها ثورات 1169 و1329 و1537، وقبل كل شيء 1669، والتي أخرجت أكثر من سبعة وعشرين ألف شخص من منازلهم وتسببت في موت الكثيرين .

وفي ذلك الوقت ارتفع جبلان مرتفعان، وهما جبلا روسي، فجأة من الأرض. في عام 1693، دمر ثوران بركان مصحوب بزلزال رهيب حوالي أربعين بلدة ودفن ما يقرب من مائة ألف شخص تحت الأنقاض. وفي عام 1755، تسبب ثوران آخر مرة أخرى في أضرار ودمار مروع. كانت تلك التي حدثت في أعوام 1792 و1843 و1852 و1865 و1874 و1879 و1882 عنيفة ومميتة بنفس القدر. ففي بعض الأحيان، كانت الحمم البركانية تنفجر من الفوهة الكبيرة، وفي أحيان أخرى كانت الحمم تنفجر من الشقوق التي يتراوح

عرضها بين خمسين وستين متراً على المنحدرات الجبلية وتخرج من هذه الشقوق وتتدفق نحو السهل .

في 26 مايو 1879، خرجت الحمم لأول مرة من فوهة البركان في عام 1874، وسرعان ما تدفقت من مخروط جديد بارتفاع مائة وسبعين متراً، وارتفع إلى ارتفاع حوالي 2450 متراً بفضل جهودهم. وقد انحدر بسرعة قاطعاً الطريق من لينغاغلوسا إلى روندازو، وتوقف بالقرب من نهر الكانتارا. وتبلغ مساحة سطح هذا التدفق اثنين وعشرين ألفاً وثمانمائة وستين هكتاراً، على الرغم من أن الثوران لم يستمر أكثر من عشرة أيام .

وخلال هذا الوقت، لم تقذف فوهة البركان في القمة سوى أبخرة كثيفة ورمال ورماد.

وبفضل لطف السيد راغوزا، عضو نادي جبال الألب ومالك فندق غراند، تمكنا من تسلق هذا البركان بأقصى سرعة.

كان التسلق متعباً بعض الشيء، ولكنه لم يكن خطيراً بأي حال من الأحوال. أخذتنا السيارة أولاً إلى نيكولوسي، عبر حقول وحدائق مليئة بالأشجار

المزروعة في الحمم البركانية المسحوقة. من وقت لآخر، عبرنا تدفقات ضخمة قطعت الطريق، وفي كل مكان كانت الأرض سوداء.

بعد مسيرة ثلاث ساعات من المشي والتسلق الخفيف، وصلنا إلى آخر قرية عند سفح جبل إتنا وهي نيكولوسي، التي ترتفع سبعمائة متر عن سطح البحر وتبعد أربعة عشر كيلومتراً عن كاتانيا. هناك تركنا السيارة لالتقاط المرشدين والبغال والبطانيات والجوارب والقفازات الصوفية، وانطلقنا مرة أخرى.كانت الساعة الرابعة عصراً. كانت شمس الشرق الحارقة تسقط على هذه الأرض الغريبة، فتسخنها وتحرقها.

تتحرك الدواب ببطء وضجر في الغبار الذي يتصاعد من حولها كالسحابة. وتتوقف الأخيرة التي تحمل حقائبها ومؤنها عند كل منعطف، وتبدو يائسة من الحاجة إلى إعادة الكرّة من جديد.

رحلة مؤلمة وعديمة الفائدة.

كل ما حولنا الآن هو الكروم، كروم مزروعة في الحمم البركانية، بعضها صغير وبعضها قديم. ثم هناك مستنقع من الحمم البركانية المغطاة بالكروم المزهرة، مستنقع من الذهب؛ ثم نعبر التدفق الهائل لعام 1882؛ ونقف

مذهولين أمام هذا النهر الهائل، الأسود الساكن، أمام هذا النهر الفوار المتحجر، القادم من هناك، من القمة التي تتصاعد منها الأدخنة، بعيداً، بعيداً جداً، على بعد عشرين كيلومتراً تقريباً. لقد سلك هذا النهر ودياناً وتخطى قمم الجبال واجتاز سهولاً، وها هو الآن على مقربة منا، وقد توقف فجأة في مساراته بعد أن جف مصدر ناره .

نتسلق، تاركين جبال روسي إلى اليسار ومكتشفين باستمرار عدداً لا يحصى من الجبال الأخرى، التي يسميها المرشدون أبناء إتنا التي تندفع حول الوحش الذي يرتدي قلادة من البراكين. هناك حوالي ثلاثمائة وخمسين منهم، هؤلاء الأبناء السود للجد، والكثير منهم بحجم فيزوف .

نحن الآن نعبر غابة رقيقة تشتد الرياح فجأة. في البداية هبوب مفاجئ وعنيف يعقب لحظة من الهدوء، ثم هبوب عاصفة غاضبة، لا تكاد تنقطع، تثير تيارًا كثيفًا من الغبار وتحمله بعيدًا .

توقفنا خلف جدار من الحمم البركانية للانتظار، وبقينا هناك حتى حلول الظلام. وأخيرًا اضطررنا إلى الانطلاق مرة أخرى، على الرغم من أن العاصفة كانت لا تزال مستعرة .

وشيئًا فشيئًا، أخذ البرد يسيطر علينا، ذلك البرد الجبلي المتغلغل الذي يجمد الدم ويشل الأطراف. يبدو أنه يتربص بنا في مهب الريح، يلسع العينين ويعض الجلد بلدغته الجليدية. نسير على طول الطريق، ملتحفين ببطانياتنا، بيض كالأعراب، نرتدي قفازات على أيدينا ونغطي رؤوسنا، تاركين البغال تتبعنا ونتعثر في الطريق الوعر المظلم .

وأخيراً نصل إلى كازا ديل بوسكو، وهو نوع من الكوخ الذي يسكنه خمسة أو ستة من الحطابين. أعلن الدليل أنه من المستحيل أن نذهب أبعد من ذلك في هذا الإعصار، وطلبنا ضيافة الليلة. ينهض الرجال ويشعلون النار وأعطونا فراشين هزيلين من القش يبدو أنهما لا يحتويان سوى البراغيث. الكوخ بأكمله يرتجف ويرتجف من العاصفة، والهواء يهب بغضب من خلال البلاط المشقوق في السقف .

لم نتمكن من رؤية شروق الشمس فوق قمة الجبل .

بعد بضع ساعات من الراحة بلا نوم، انطلقنا مرة أخرى. حلّ النهار وهدأت الرياح .

يمتدّ حولنا الآن منظر طبيعي أسود متموّج يرتفع بلطف نحو منطقة الثلوج التي تظهر بشكل ساطع عند سفح المخروط الأخير على ارتفاع ثلاثمائة متر .

على الرغم من أن الشمس كانت تشرق وسط سماء زرقاء، إلا أن البرد، البرد القاسي للقمم العظيمة، كان يخدر أصابعنا ويحرق جلدنا. كانت بغالنا، واحدة وراء الأخرى، تتبع ببطء الطريق المتعرج الذي يتجاوز كل خيالات الحمم البركانية .

هنا أول سهل من الثلوج. نتجنبه بخطاف. لكن سرعان ما يتبعه سهل آخر والتي يجب عبورها في خط مستقيم. ترددت الحيوانات وهي تتحسس طريقها وتتقدم بحذر. فجأة، انتابني إحساس مفاجئ بالغرق في الأرض. اخترقت القائمتان الأماميتان للبغلة القشرة التي تدعمها، واخترقتا القشرة التي تسندها حتى الصدر. يصارع الحيوان مذعورًا، ثم ينهض، ثم ينهض ويغوص مرة أخرى بقوائمه الأربع، ثم ينهض مرة أخرى، ليسقط مرة أخرى .

فعل الآخرون نفس الشيء. علينا أن نقفز ونهدئهم ونساعدهم ونسحبهم. طوال الوقت، يغوصون حتى بطونهم في الرغوة البيضاء الباردة، حيث تغوص أقدامنا أحيانًا حتى الركبتين. بين الثلوج التي تملأ الوديان، نجد الحمم

البركانية، سهول كبيرة من الحمم البركانية مثل حقول هائلة من المخمل الأسود، تلمع في الشمس ساطعة مثل الثلج نفسه. إنها منطقة مهجورة، منطقة ميتة، تبدو في حداد، كلها بيضاء وسوداء، عمياء، رهيبة ورائعة، لا تُنسى.

بعد أربع ساعات من المشي والجهد، وصلنا إلى كازا إنجليزي، وهو منزل حجري صغير محاط بالجليد، يكاد يكون مدفوناً تحت الثلوج عند سفح المخروط الأخير الذي يرتفع خلفه، ضخم ومستقيم، يعلوه الدخان .

هذا هو المكان الذي عادةً ما نقضي فيه الليل، على القش، لنشاهد شروق الشمس فوق حافة الفوهة. تركنا البغال هناك وبدأنا في تسلق هذا الحائط المخيف من الرماد المتصلب الذي ينهار تحت الأقدام، حيث لا يمكنك التمسك بأي شيء، حيث تتراجع كل ثلث خطوة. تنفخ وتنفخ وتغرز عصاك في الأرض الرخوة وتتوقف بين الحين والآخر .

ثم تضطر بعد ذلك إلى وخز العصا بين رجليك لمنعك من الانزلاق والرجوع إلى أسفل، لأن المنحدر شديد الانحدار بحيث لا يمكنك حتى الجلوس .

يستغرق الأمر حوالي ساعة لتسلق الثلاثمائة متر. منذ بعض الوقت، كانت الأبخرة الكبريتية تتنفس في حناجرنا. أحيانًا على اليمين، وأحيانًا على اليسار، ورأينا نفاثات كبيرة من الدخان تخرج من شقوق في الأرض، ووضعنا أيدينا على حجارة كبيرة مشتعلة وأخيراً وصلنا، هي منصة ضيقة. أمامنا سحابة كثيفة ترتفع أمامنا ببطء، مثل ستارة بيضاء ترتفع من الأرض. تقدمنا بضع خطوات أخرى، وقد غطينا أنوفنا وأفواهنا حتى لا يخنقنا الكبريت، وفجأة انفتحت أمام أقدامنا هاوية هائلة مخيفة يبلغ محيطها حوالي خمسة كيلومترات. ومن خلال الأبخرة الخانقة استطعنا بالكاد أن نتبين الجانب الآخر من هذه الحفرة الموحشة التي يبلغ عرضها ألفاً وخمسمائة متر، والتي يهوي جدارها المستقيم في أرض النار الغامضة الرهيبة .

الوحش هادئ. إنه نائم في القاع. فقط الدخان الكثيف يتصاعد من المدخنة الهائلة التي يبلغ ارتفاعها 3312 متراً .

كل ما حولنا أغرب من ذلك .

إن صقلية كلها مخفية بالضباب الذي يتوقف قبالة الساحل، ولا يحجب سوى اليابسة، بحيث نكون في وسط السماء، في وسط البحار، فوق

السحب، عالياً جداً، عالياً جداً، بحيث أن البحر الأبيض المتوسط، الممتد على مد البصر، لا يزال يبدو كالسماء الزرقاء.

كانت الزرقة تلفنا من جميع الجهات .

كنا نقف على جبل مدهش يرتفع من بين السحب ويغرق في السماء التي تمتد فوق رؤوسنا وتحت أقدامنا وفي كل مكان .

وشيئاً فشيئاً، تنتشر السحب فوق الجزيرة وترتفع من حولنا، وسرعان ما تحيط بالبركان الهائل وسط دائرة من السحب، هوة من السحب. الآن حان دورنا لنكون في قاع فوهة البركان البيضاء بالكامل، حيث لا نرى منها سوى السماء الزرقاء في الأعلى، وننظر إلى الأعلى .

في أيام أخرى، يكون المشهد مختلفاً تماماً، كما يقولون .

تنتظر شروق الشمس خلف ساحل كالابريا. وهي تلقي بظلالها فوق البحر حتى سفح جبل إتنا الذي يغطي ظله المظلم المهيب صقلية كلها بمثلثه الهائل الذي يتلاشى مع شروق النجم.

ثم نكتشف بعد ذلك مشهداً بانورامياً يزيد قطره على أربعمائة كيلومتر ومحيطه ألف وثلاثمائة كيلومتر، حيث إيطاليا في الشمال وجزر ليباري التي

يبدو أن بركانيها يحييان الأب ؛ ثم في أقصى الجنوب مالطة التي لا تكاد تظهر .

في موانئ صقلية، تبدو السفن كالحشرات في البحر .

وقد كتب ألكسندر دوماس الأب وصفاً سعيداً ومتحمساً جداً لهذا المنظر .

هبطنا المخروط السريع لفوهة البركان على ظهورنا وعلى أقدامنا، وسرعان ما دخلنا حزاماً كثيفاً من السحب التي تلف قمة الجبل. وبعد ساعة من السير خلال الضباب، عبرناها أخيراً واكتشفنا تحت أقدامنا الجزيرة الخضراء المسنونة بخليجها ورؤوسها ومدنها وبحرها الأزرق العظيم الذي يحيط بها .

بالعودة إلى كاتانيا، انطلقنا في اليوم التالي إلى سيراكوزا .

يجب أن تنتهي الرحلة إلى صقلية إلى هذه المدينة الصغيرة الفريدة والساحرة. فقد كانت مشهورة كأعظم المدن؛ وكان لطغاتها عهود شهيرة كشهرة عهد نيرون؛ وهي تنتج نبيذاً اشتهر به الشعراء؛ وعلى شواطئ الخليج الذي تشرف عليه نهر صغير أنابو حيث ينمو نبات البردي الحارس السري للفكر؛ وداخل أسوارها واحدة من أجمل البقاع في العالم.

بعض الناس يقطعون القارات ليحجوا إلى بعض التماثيل العجيبة، ولكني ذهبت لأعبد فينوس سيراكيوز !

كنت قد رأيت في ألبوم أحد الرحالة صورة لهذه الأنثى الرخامية الرائعة؛ ووقعت في حبها كما يقع المرء في حب امرأة. ولعلها هي التي قررت أن أقوم بهذه الرحلة، فقد كنت أتحدث عنها وأحلم بها طوال الوقت، حتى قبل أن أراها .

ولكننا وصلنا بعد فوات الأوان لدخول المتحف الموكول إلى عناية الأستاذ العلامة فرانشيسكو سافيريو كافالاري، الذي نزل مثل إمبيدوقليس في العصر الحديث ليحتسي فنجاناً من القهوة في فوهة جبل إتنا .

لذلك كان علي أن أستكشف المدينة المبنية على جزيرة صغيرة وتفصلها عن اليابسة ثلاثة أسوار تمر بينها ثلاثة مداخل للبحر. إنها صغيرة وجميلة، وتقع على حافة الخليج، حدائق ومنتزهات تمتد حتى المياه.

ثم نذهب إلى اللاتوميات، وهي حفريات ضخمة في الهواء الطلق كانت في البداية محاجر ثم أصبحت فيما بعد سجوناً حيث ظل الأثينيون الأسرى

محبوسين لمدة ثمانية أشهر بعد هزيمة نيقياس، يعذبهم الجوع والعطش والحرارة الرهيبة لهذا الحوض، والوحل المتلاطم الذي كانوا يتخبطون فيه .

وفي إحداها، وهي لاتومي دو باراديس، توجد فتحة غريبة في قاع الكهف تعرف باسم أذن دينيس الذي قيل إنه كان يأتي إلى حافة هذه الحفرة ليستمع إلى شكاوى ضحاياه. وهناك روايات أخرى أيضاً. ويزعم بعض العلماء البارعين أن هذا الكهف المتصل بالمسرح كان يستخدم كقاعة تحت الأرض للعروض، حيث كان يضفي عليها صدى صوته العجيب؛ لأن أقل الأصوات هناك تأخذ صدى مدهشاً.

ولا شك أن أكثر اللاتوميات إثارة للفضول بين اللاتوميات هو بلا شك كاتدرائية الكبوشيين، وهي حديقة واسعة وعميقة تقسمها أقبية وأقواس وصخور هائلة و تحيط بها منحدرات بيضاء .

بعد ذلك بقليل، نزور سراديب الموتى التي تغطي مساحة حوالي مائتي هكتار، وحيث اكتشف السيد كافالاري أحد أجمل التوابيت المسيحية المعروفة .

ثم عدنا إلى الفندق المتواضع المطل على البحر وسهرنا إلى وقت متأخر ونحن نحلم وننظر إلى العيون الحمراء والزرقاء لسفينة راسية .

وما أن حل الصباح وأُعلن عن زيارتنا حتى فُتحت لنا أبواب القصر الصغير المبهج الذي يضم مقتنيات المدينة وأعمالها الفنية .

وما أن دخلنا المتحف حتى رأيتها في مؤخرة إحدى الغرف، جميلة كما توقعت .

ليس لها رأس وهي فاقدة ذراع، ولكن لم يظهر لي قط شكلها الإنساني أكثر إثارة للإعجاب والقلق .

ليست هذه هي المرأة الشاعرة، المرأة المثالية، المرأة الإلهية أو المهيبة مثل فينوس دي ميلو، هذه هي المرأة كما هي، كما نحبها، كما نرغب فيها، كما نريد أن نعانقها.

إنها سمينة ذات صدر قوي وصدر متين وورك قوي وساق ثقيلة بعض الشيء، إنها فينوس جسدية نحلم بها مستلقية عندما نراها واقفة. ذراعها الساقطة تخفي ثدييها؛ وبيدها الباقية ترفع ستارة تغطي مفاتنها الأكثر غموضاً بإيماءة بديعة. إن جسدها كله مصنوع ومصمَّم ومثنى من أجل هذه

الحركة، وكل الخطوط مركزة عليها، وكل الفكر ينصب عليها. هذه الإيماءة البسيطة والطبيعية، المليئة بالحياء والوقاحة، التي تخفي وتظهر، تحجب وتكشف، تجذب وتسرق، تبدو وكأنها تحدد موقف المرأة كله على الأرض .

والرخام حي. إنك تريد أن تتحسسه وأنت على يقين من أنه سوف ينفرج تحت يدك، مثل اللحم .

أما الخاصرة خاصةً فتتسم بالحيوية والجمال الذي لا يمكن التعبير عنه. إنها تكشف بكل سحرها عن ذلك الخط المتموج السمين المتموج للظهر الأنثوي الذي يمتد من مؤخرة العنق إلى الكعبين، والذي يظهر في محيط الكتفين، وفي استدارة الفخذين المتناقصة، وفي الانحناء الطفيف للساقين، المستدق إلى الكاحلين، كل تعديلات الرشاقة الإنسانية.

لا يكون العمل الفني متفوقًا إلا إذا كان، في الوقت نفسه، رمزًا وتعبيرًا دقيقًا عن الواقع .

فينوس سيراكيوز هي امرأة ورمز للجسد .

عندما تنظر إلى لوحة الموناليزا، تشعر بأنك مهووس بإغراء الحب الغامض والصوفي. هناك أيضًا نساء أحياء تمنحنا عيونهنّ ذلك الحلم بالحنان

الغامض الذي لا يمكن بلوغه. نبحث فيهن عن شيء آخر وراء ما هو كائن، لأنهن يبدون وكأنهن يحتوين ويعبّرن عن شيء من المثل الأعلى المراوغ. نبحث عنه دون أن نصل إليه أبداً، وراء كل مفاجآت الجمال الذي يبدو أنه يحتوي على الفكر، في لا نهائية النظرة التي ليست سوى ظل القزحية، في سحر الابتسامة التي تأتي من ثنية الشفة ووميض المينا، في رشاقة الحركة التي ولدت من الصدفة وتناغم الأشكال.

هكذا كان الشعراء، وهم صائدو النجوم الذين لا حول لهم ولا قوة، معذبين دائماً بالظمأ إلى الحب الصوفي. فالتمجيد الطبيعي للروح الشاعرة، التي تهيجها الإثارة الفنية، يدفع هذه الكائنات الراقية إلى تصور نوع من الحب الغائم الذي يتسم بالحنان الشديد، والنشوة، وعدم الإشباع، والحسية دون أن يكون جسدياً، والرقة التي لا يجعلها شيء تتلاشى، واللامبالاة التي لا يمكن بلوغها ولا يمكن أن تكون فوق طاقة البشر. وربما يكون هؤلاء الشعراء هم الرجال الوحيدون الذين لم يحبوا امرأة قط، امرأة حقيقية من لحم ودم، بصفاتها الأنثوية، بخصائصها الأنثوية، بعيوبها الأنثوية، بروحها الأنثوية المضبوطة والساحرة، بعصبيتها الأنثوية وأنوثتها المقلقة .

فكل مخلوق تعظمه أحلامهم هو رمز لكائن غامض ولكنه ساحر: هذا الكائن الذي يتغنون به، هؤلاء المغنون من أصحاب الأوهام .

هذا الكائن الحي الذي يعبدونه هو شيء يشبه تمثالاً مرسوماً، صورة إله يركع أمامه الناس. أين هذا الإله؟ ما هو هذا الإله؟ في أي جزء من السماء يسكن هذا المجهول الذي يعبدونه جميعاً، هؤلاء المجانين، من أول حالم إلى آخر ؟ بمجرد أن يلمسوا يداً تستجيب لضغطهم، تطير روحهم بعيداً في حلم غير مرئي، بعيداً عن الواقع الجسدي .

المرأة التي يحتضنونها يحولونها ويكملونها ويشوهونها بفنهم الشعري. ليست شفتيها التي يقبلونها، بل شفتيها التي يحلمون بها. إن نظراتهم السامية لا تضيع في أعماق عينيها الزرقاوين أو السوداوين، بل في شيء مجهول لا يعرفونه! إن عين عشيقتهم ليست سوى النافذة التي يتطلعون من خلالها إلى رؤية جنة الحب المثالي .

ولكن إذا كانت بعض النساء المزعجات يستطعن أن يمنحن أرواحنا هذا الوهم النادر، فإن أخريات لا يستطعن إلا أن يثرن في عروقنا ذلك الحب المتهور الذي ينبع منه جنسنا .

إن فينوس سيراكيوز هي التعبير المثالي عن هذا الجمال القوي والصحي والبسيط. يقال إن هذا الجذع الرائع المصنوع من رخام باروس هو فينوس الكاليبي التي وصفها أثيناوس ولامبرايد، والتي أهداها هيليوجابالوس إلى السيراكيين .

ليس لها رأس! لا يهم! أصبح الرمز أكثر اكتمالاً. إنه جسد المرأة الذي يعبر عن كل الشعر الحقيقي للعناق.

قال شوبنهاور إن الطبيعة، رغبةً منها في إدامة النوع، حولت التكاثر إلى فخ .

هذا الشكل الرخامي، الذي نراه في سيراكيوز، هو في الواقع الفخ البشري الذي خمنه الفنان القديم، المرأة التي تخفي وتكشف في آن واحد سر الحياة المحير .

هل هو فخ؟ لا يهم! إنها تغري الفم، وتجذب اليد، وتقدم للقبلات الحقيقة الملموسة للحم الرائع، اللحم المرن والأبيض، المستدير والمتماسك واللذيذ تحت العناق .

إنه إلهي، ليس لأنه يعبر عن فكرة، بل فقط لأنه جميل .

وبينما أنت معجب به، تفكر في الكبش البرونزي من سيراكيوز، أجمل قطعة في متحف باليرمو، والتي تبدو أيضاً وكأنها تحتوي على كل حيوانية العالم. هذا الوحش القوي تراه متكئاً، وجسمه على قدميه ورأسه مائل إلى اليسار. ويبدو أن رأس هذا الحيوان هو رأس إله، إله بهيمي، غير طاهر، غير ظاهر، إله خارق. فالجبهة عريضة ومجعّدة، والعينان متباعدتان، والأنف أحدب، طويل وقوي وقصير، مع تعبير وحشي عجيب. أما القرنان اللذان يتراجعان إلى الوراء وينخفضان ويلتفان وينحنيان وينشران نقطتيهما الحادتين تحت الأذنين الرفيعتين اللتين تشبهان قرنين. ونظرات الوحش تخترقك، غبية ومزعجة وقاسية. يمكنك أن تشم رائحة الوحش المتوحش وأنت تقترب من هذا البرونز.

من هما الفنانان الرائعان اللذان صاغا الجمال البسيط لهذا المخلوق تحت هذين الوجهين المختلفين؟

هذان التمثالان هما التمثالان الوحيدان اللذان تركا في نفسي رغبة شديدة في رؤيتهما مرة أخرى .

ولما حان وقت الرحيل، ألقيت على هذا الردف الرخامي تلك النظرة الأخيرة من الباب التي يلقيها المرء على الحبيبات عند مفارقتهن، وركبت القارب في الحال لأذهب لتحية برديات أنابو، كواجب الكاتب .

عبرنا الخليج من جانب إلى آخر، وعلى الشاطئ المنبسط العاري رأينا مصب نهر صغير جداً، يكاد يكون جدولاً حيث يدخل القارب.

التيار قوي ويصعب السباحة فيه. أحياناً نجدّف، وأحياناً نستخدم خطاف القارب لننزلق على طول الماء السريع الجريان بين ضفتين مغطيتين بأزهار صغيرة صفراء زاهية، ضفتين ذهبيتين .

هنا قصب نطحنه ونحن نعبر، ينحني ويرتفع مرة أخرى، ثم، وأقدامنا في الماء، سوسن أزرق، أزرق عنيف، ترفرف عليه عدد لا يحصى من اليعاسيب بأجنحة زجاجية، لؤلؤية ومرتعشة، كبيرة مثل الطيور الطنانة. والآن، على الجسرين اللذين يسجناننا، تنمو أشواك عملاقة وحشائش ضخمة تتشابك فيها نباتات الأرض وقصب الجدول .

وتحتنا، في قاع الماء، غابة من الأعشاب المتموجة العظيمة التي تتحرك وتطفو وتبدو وكأنها تسبح في التيار الذي يحركها .

ثم ينفصل نهر أنابو عن نهر سيانيه القديم، رافداً له. نواصل الخوض بين الضفتين. يتعرّج المجرى بمناظر ساحرة من المناظر المزهرة والجميلة. أخيراً، تظهر جزيرة مليئة بالشجيرات الغريبة. تحمل السيقان المغزلية المثلثة الشكل، التي يتراوح ارتفاعها بين تسعة أقدام واثني عشر قدماً، خصلات مستديرة من الخيوط الخضراء في الأعلى، طويلة ورقيقة ونضرة كالشعر. تبدو كرؤوس بشرية تحولت إلى نباتات ألقيت في مياه النبع المقدسة من قبل أحد الآلهة الوثنية التي كانت تعيش هناك. هذا هو ورق البردي القديم.

يسمي الفلاحون هذه القصبة (بروكا)، وهناك غيرها في مكان أبعد من ذلك، خشباً كاملاً. وهم يرتجفون، ويغمغمون، وينحنون، ويخلطون جباههم المشعرة ببعضها، ويقرعونها ببعضها، ويبدو أنهم يتحدثون عن أشياء مجهولة وبعيدة .

أليس من الغريب أن الشجيرة الموقرة التي جلبت لنا أفكار الموتى، والتي كانت حارسة العبقرية البشرية، أن يكون على جسمها الشجري الصغير، عرف كثيف متدفق، مثل عرف الشعراء؟

نعود إلى سيراكيوز بينما تغرب الشمس، وننظر من فوق الميناء إلى باخرة وصلت للتو وستأخذنا هذا المساء بالذات إلى أفريقيا.

5

من الجزائر العاصمة إلى تونس العاصمة

على أرصفة الجزائر العاصمة أو في شوارع القرى المحلية أو في سهول التل أو في جبال الساحل أو في رمال الصحراء، كل هذه الأجساد التي تلبس كما لو كانت في ثياب الرهبان، ورؤوسهم مقنعة تحت العمامة التي تطفو من خلفهم، وملامحهم الحادة، ونظراتهم الثابتة، تبدو كلها كما لو كانت تنتمي إلى رجال دين من نفس الرهبنة المتقشفة المنتشرة في نصف الكرة الأرضية .

إن مشيتهم هي مشية الكهنة، و إيماءاتهم هي إيماءات الرسل الوعّاظ، وموقفهم هو موقف المتصوفة المليء باحتقار العالم .

نحن، في الحقيقة، بين أناس تسيطر الفكرة الدينية على كل شيء، وتطمس كل شيء، وتنظم الأعمال، وتحتضن الضمائر، وتصوغ قلباً، وتحكم الفكر، وتعلو على كل المصالح، وكل الانشغالات، وكل الانفعالات.

فالدين هو الملهم الأكبر لأعمالهم ونفوسهم وصفاتهم وعيوبهم. فبالدين ومن أجل الدين يكونون صالحين وشجعاناً وأرق قلوباً وأوفياء، لأنهم لا يبدون شيئاً في أنفسهم، ولا يملكون من الصفات ما لم يلهمهم أو يأمرهم به إيمانهم .

إننا لا نكاد نكتشف الطبيعة العفوية أو البدائية للعربي إلا إذا كانت، إذا جاز التعبير، قد أعيد خلقها بإيمانه، بالقرآن، بتعاليم محمد. لم يتجسد أي دين آخر في البشر بهذه الطريقة .

فلنذهب إذن لنراهم وهم يصلون في مسجدهم، في المسجد الأبيض الذي ترونه هناك، في نهاية شارع الجزائر.

في الفناء الأول، تحت رواق من الأعمدة الخضراء والزرقاء والحمراء، يجلس الرجال أو يجثمون على ركبهم، يتجاذبون أطراف الحديث بأصوات منخفضة في هدوء الشرقيين الوقور. ومقابل المدخل، في الجزء الخلفي من غرفة صغيرة مربعة تشبه الكنيسة الصغيرة، يقوم القاضي بإقامة العدل .

وينتظر المدعون على مقاعد، ويتحدث أعرابي راكعاً، بينما القاضي الملتحف الذي يكاد يختفي تحت طيات ثيابه وتحت كتلة عمامته الثقيلة لا

يظهر من وجهه إلا القليل، وينظر إلى المتقاضي بعينين هادئتين قاسيتين و يصغي إليه .

ويفصل بين هذه الغرفة وبين الغرفة التي يفصلها حائط ذو نافذة مشوية يفصلها عن تلك التي تنتظر فيها النساء، وهن مخلوقات أقل شهامة من الرجال ولا يستطعن الوقوف أمام القاضي، دورهن في بث شكواهن من خلال نافذة الاعتراف هذه .

وتسقط الشمس في تيارات نارية على الجدران الثلجية لهذه البنايات الصغيرة التي تشبه مقابر المرابطين وعلى الفناء حيث ترمي عجوز عربية سمكاً ميتاً لجيش من القطط العانس. وفي الداخل، تشرق الشمس على البرنس والأرجل البنية الجافة والأشكال الجامدة. أبعد من ذلك، هناك المدرسة، بجانب النافورة حيث تجري المياه تحت شجرة .

كل شيء هناك، في هذا المحيط الناعم والهادئ، الدين، والعدالة، والتعليم.

وبعد أن أخلع حذائي أدخل المسجد وأخطو على السجاد وسط الأعمدة الواضحة التي تملأ خطوطها المنتظمة هذا المعبد الصامت، الواسع المنخفض، ذو الأعمدة العريضة. فهي عريضة جداً، وأحد جانبيها مواجه

لمكة المكرمة، بحيث يستطيع كل مؤمن أن يقف أمامها فلا يرى شيئاً، ولا يشغله شيء، ويستغرق في الصلاة وهو يواجه المدينة المقدسة .

البعض يسجد، وآخرون واقفون يرددون صيغ القرآن الكريم في الأوضاع المفروضة، وآخرون متحررون من هذه الواجبات يتجاذبون أطراف الحديث جالسين على الأرض، بمحاذاة الجدران، لأن المسجد ليس مكانًا للصلاة فقط، بل هو أيضًا مكان للراحة، حيث يقيم الناس ويقيمون فيه أيامًا طوالاً .

كل شيء بسيط، كل شيء عارٍ، كل شيء أبيض، كل شيء ناعم، كل شيء هادئ في هذه الملاجئ الإيمانية التي تختلف كثيراً عن كنائسنا المزخرفة التي عندما تكون ممتلئة تضج بضجيج الخدم، وحركة المساعدين، وأبهة الاحتفالات، والأناشيد المقدسة، وعندما تكون فارغة تصبح حزينة جداً، مؤلمة جداً لدرجة أنها تعصر القلب، بحيث يكون لها جو غرفة رجل يحتضر، جو الغرفة الحجرية الباردة حيث المصلوب لا يزال يتألم. مرارًا وتكرارًا، يدخل العرب، المتواضع والغني والحمّال والعتال والزعيم السابق، والنبيل في بياضه الحريري الناصع الباهر. جميعهم، حفاة الأقدام، يقومون بنفس الحركات، ويصلون لنفس الإله بنفس الإيمان السامي والبسيط، دون تكلف أو تشويش. يقفون أولاً، ووجوههم إلى أعلى، وأيديهم مفتوحة على ارتفاع

الكتفين، في وضع التضرع. ثم تنخفض أذرعهم إلى جانبيهم ورؤوسهم منحنية؛ ثم يقفون أمام ملك العالم في وضع الاستسلام. ثم تنضم اليدان معًا على البطن، كما لو كانتا مقيدتين. إنهم أسرى تحت إرادة السيد. وأخيرًا يسجدون عدة مرات متتالية وبسرعة كبيرة دون أن يصدروا صوتًا. بعد أن يجلسوا أولاً على كعبيهم، وأيديهم مفتوحة على أفخاذهم، ينحنون إلى الأمام حتى يلامسوا الأرض بجباههم .

هذه الصلاة، التي هي نفسها دائمًا وتبدأ بتلاوة الآيات الأولى من القرآن، يجب أن تتكرر خمس مرات في اليوم من قبل المؤمنين، الذين يغسلون أقدامهم وأيديهم ووجوههم قبل الدخول .

كل ما يمكن سماعه من خلال المعبد الصامت هو رذاذ الماء الذي يجري في فناء داخلي آخر يضيء نهار المسجد .

يلقي ظل شجرة التين التي تنمو فوق نافورة الوضوء بوهج أخضر على الحصير الأول.

يمكن للنساء المسلمات الدخول كالرجال، ولكنهن لا يأتين أبداً تقريباً. فالله بعيد جدًا، عالٍ جدًا، ومهيمن جدًا بالنسبة لهن. لا يجرؤن أن يخبرنه بكل

همومهنّ، أن يكلن إليه كل أحزانهن، أن يطلبن منه كل الخدمات الصغيرة، المواساة الصغيرة، المساعدة الصغيرة ضد العائلة، ضد الزوج، ضد الأولاد، التي تحتاجها قلوب النساء. لا بدّ من وسيط أكثر تواضعًا بينه هو، العظيم جدًا، وبينهنّ الصغيرات جدًا .

هذا الوسيط هو المرابط. أليس لدينا في الديانة الكاثوليكية القديسين و مريم العذراء، المدافعين الطبيعيين عن الخجول أمام الله؟

إذن، عند قبر القديس، في الكنيسة الصغيرة التي دُفن فيها، سنجد المرأة العربية تصلي عند قبر القديس .

لنذهب ونراها هناك .

زاوية عبد الرحمن الثعالبي هي الأكثر أصالة و إثارة للاهتمام في الجزائر العاصمة. والزاوية عبارة عن مسجد صغير متصل بالقبة، وأحياناً تضم الزاوية مدرسة ودورة تعليمية عالية للمتعلمين من المسلمين .

للوصول إلى زاوية عبد الرحمن، عليك أن تعبر البلدة العربية. إنه تسلق لا يمكن تصوره عبر متاهة من الأزقة المتشابكة المتعرجة، بين جدران المنازل المغاربية الخالية من النوافذ. تكاد تلامس بعضها البعض في الأعلى،

وتبدو السماء، التي تُرى بين المدرجات، أرابيسك أزرق من الخيال غير المنتظم والغريب.

وأحياناً، ممر طويل، متعرج، مقبب، شديد الانحدار كطريق جبلي، يبدو وكأنه يؤدي مباشرة إلى الزرقة، التي يمكن أن ترى فجأة عند منعطف في الجدار، في نهاية الدرج، في الأعلى، هناك .

على طول هذه الممرات الضيقة، في أسفل البيوت، يجثم أعراب على طول هذه الممرات، عند سفح البيوت، وهم غارقون في غفلتهم، وآخرون محشورون في المقاهي المغاربية، على مقاعد دائرية أو على الأرض، لا يتحركون، يشربون من كؤوس فخارية صغيرة ممسوكة بين أصابعهم في وقار. في هذه الشوارع الضيقة التي لا بد من تسلقها، تسقط الشمس على حين غرة، على شكل قطرات أو بقع كبيرة عند كل استراحة في الممرات المتقاطعة، فتلقي أنماطاً غير متوقعة من الضوء اللامع والمبهج على الجدران. من خلال الأبواب نصف المفتوحة، يمكنك أن ترى الأفنية الداخلية التي يهب منها الهواء النقي. إنه دائماً نفس البئر المربع المحاط برواق يدعم الأروقة. يتسرب أحياناً صوت موسيقى ناعمة وجامحة من هذه المساكن التي غالباً ما تخرج منها النساء في أزواج .

ومن بين النقاب الذي يغطي وجوههن، يرمقونك بنظرة قاتمة حزينة، نظرة السجينات، ثم يمضين.

◊

يرتدين شعرهن على الطريقة التي نرى بها مريم العذراء، مع قطعة قماش مشدودة بإحكام على جماجمهن، وجذوعهن ملفوفة في حايك، وأرجلهن مخفية تحت السراويل القماشية أو القطنية الواسعة التي تعانق كواحلهن، يمشين ببطء، في ارتباك وتردد قليلاً، ونحاول أن نتبين وجوههن تحت النقاب الذي يسحبهن قليلاً وهو يلتصق بالنتوءات. يمتد قوسان زرقاوان من الحاجبين، متصلان بخط من الكحل في المسافة، فوق الصدغين .

فجأة تناديني أصوات. أستدير، فأرى من خلال باب مفتوح لوحات كبيرة غير لائقة على الجدران، كتلك الموجودة في بومبي. إن حرية الأخلاق، وازدهار الدعارة الجريئة الساذجة التي لا تعد ولا تحصى، في وسط الشارع، تكشف على الفور عن الفرق العميق الموجود بين الحياء الأوروبي واللاوعي الشرقي.

دعونا لا ننسى أنه منذ سنوات قليلة فقط كانت عروض الكاراغوس، وهو نوع من الغينيول الفاحش والوحشي، تُعرض في هذه الشوارع نفسها، وكان الأطفال يشاهدون ويضحكون ويصفقون بعيونهم السوداء الكبيرة، جهلاً وفساداً، على ما كان يعرض من مآثر حقيرة ولا تصدق .

وفي أنحاء الجزء الأعلى من المدينة العربية، بين محلات الخردوات والبقالات ومحلات الفاكهة للمزابيين غير الفاسدين، وهم من الطهرانيين المحمديين الذين لم يلوثهم إلا مخالطة غيرهم من البشر، والذين سيخضعون لتطهير طويل عندما يعودون إلى وطنهم، كانت أكشاك اللحم البشري مفتوحة على مصراعيها، حيث ينادى الناس بكل لغة. يبدو أن المزابي الجاثم في دكانه الصغير، وسط بضاعته المصفوفة بعناية من حوله، لا يرى ولا يعرف ولا يفهم .

عن يمينه نساء إسبانيات يزعقن كالحمائم؛ وعن يساره نساء عربيات ينعقن كالقطط. وفي وسطهن، بين عارية وقحة مرسومة لتزيين القضيبين، يبدو وكأنه بائع فاكهة منوم في حلم.

انعطفتُ يميناً عبر ممر صغير يبدو لي أنه يقع في البحر، يمتد على مسافة بعيدة خلف نقطة سان أوجين، فأرى في نهاية هذا النفق، على بعد أمتار قليلة

تحتي، جوهرة مسجد، أو بالأحرى زاوية جميلة جداً تنتشر فيها مبانٍ صغيرة وقبور صغيرة مربعة ومستديرة ومدببة، على طول درج يتعرج من شرفة إلى أخرى .

المدخل محجوب بجدار يبدو وكأنه مصنوع من الثلج الفضي، محاط ببلاط خزفي أخضر اللون ومخترق بفتحات منتظمة يمكنك من خلالها رؤية ميناء الجزائر .

أدخل. متسولون وعجائز وأطفال ونساء جاثمون على كل درجة، وأيديهم ممدودة يتسولون الصدقات باللغة العربية. إلى اليمين، في مبنى صغير مغطى أيضاً بالأواني الفخارية، يوجد القبر الأول، ومن خلال الباب المفتوح يمكنك أن ترى المؤمنين جالسين أمام القبر. وإلى الأسفل، ترتفع القبة المبهرة لكعبة المرابط عبد الرحمن بجوار المئذنة النحيفة المربعة التي يؤذن منها الأذان.

وفي الأسفل هناك المزيد من القبور المتواضعة، يليها قبر أحمد باي قسنطينة الشهير الذي ترك الكلاب تلتهم بطون الأسرى الفرنسيين .

إن المنظر من الشرفة الأخيرة عند مدخل المرابط مبهج. تهيمن كاتدرائية نوتردام دي أفريك، على مسافة بعيدة، على سان أوجين والبحر بأكمله الذي يمتد إلى الأفق، حيث يمتزج مع السماء .

وعلى مسافة أقرب، على اليمين، تقع البلدة العربية التي ترتفع من سطح إلى سطح، حتى الزاوية، و إلى أعلى، بيوتها الطباشيرية الصغيرة. من حولي، قبور، وشجرة سرو، وشجرة تين، وزخارف مغاربية تؤطر وتزين كل الجدران المقدسة .

◊

بعد أن خلعت حذائي، دخلت القبة. أولاً، في غرفة ضيقة، يجلس عالم مسلم على عقبيه ويقرأ مخطوطاً يمسكه بكلتا يديه على مستوى العينين. وتنتشر الكتب والمخطوطات من حوله على الحصير. وهو لا يدير رأسه.

بعيدًا، أسمع حفيفًا وهمسًا. بينما أقترب، كل النساء الرابضات حول القبر يغطين وجوههن بنشاط. يبدون مثل رقاقات كبيرة من الكتان الأبيض بعيون لامعة .

وفي وسطهن، في هذه الرغوة من الفانيلا والحرير والصوف والقماش، أطفال نائمون أو صاخبون، يرتدون ملابس حمراء وزرقاء وخضراء: إنه أمر ساحر وساذج. إنهم في بيوتهم، في بيت وليّهم الذي زينوا مسكنه، لأن الله أبعد من أن تتسع له عقولهم الضيقة، وأعظم من أن تتواضع له نفوسهم .

إنهم لا يتطلعون إلى مكة، بل إلى جسد الولي، ويضعون أنفسهم تحت حمايته المباشرة، التي لا تزال، دائماً، حماية الإنسان. إن عيونهن الناعمة الحزينة، التي يبرزها شريطان أبيضان، لا تستطيع أن ترى غير المادي، لا تعرف إلا المخلوق. فالذكر هو الذي يطعمهن ويدافع عنهن ويعولهن، والذكر هو الذي سيتكلم عنهن إلى الله بعد موته. ها هن، على مقربة من القبر، مزينات ومطليات، كسرير بريتوني مطلي بالألوان ومغطى بالأقمشة والحرير والأعلام والهدايا.

يتهامسن، ويتحدثن فيما بينهن، ويقصصن على الولي أمورهن وهمومهن ونزاعاتهن ومظالمهن ضد الزوج. إنه تجمع حميم ومألوف من الثرثرة حول مرقد الولي.

والمرقد كله مليء بهداياهم الغريبة: ساعات من كل الأحجام تدق وتدق الثواني وتضرب الساعات ورايات النذور وجميع أنواع الثريات النحاسية والبلورية. هناك الكثير من الثريات لدرجة أنك لا تستطيع حتى رؤية السقف. فهي معلقة جنباً إلى جنب، بأحجام مختلفة، كما هو الحال في متجر صانع المصابيح. تم تزيين الجدران بأوانٍ فخارية أنيقة ذات تصميم ساحر، لونها السائد دائماً هو الأخضر والأحمر. الأرضية مغطاة بسجادة ويسقط ضوء النهار من القبة من خلال مجموعات من ثلاث نوافذ مقوسة تهيمن إحداها على الأخريين.

لم يعد المسجد مسجداً قاسياً عارياً يخلو فيه الله وحده، بل أصبح مخدعاً مزيناً للصلاة بذوق النساء المتوحشات الصبيانيات. وكثيراً ما يأتي العشاق إلى هذا المكان ليتواعدوا فيه مع العشيقات، وليتحدثوا سراً. والأوربيون الذين يتكلمون العربية يقيمون أحياناً علاقات هنا مع هذه المخلوقات المتوارية بطيئة الحركة، التي لا نرى منها إلا عيونها .

وعندما يأتي إخوة المرابطين من الذكور للقيام بعباداتهم، لا يظهرون نفس الاهتمام الحصري لساكن المكان المقدس. فبعد أن يقدّموا احترامهم للقبر، يتوجّهون نحو القبلة ويعبدون الله - إذ لا إله إلا الله - كما يكرّرون في جميع صلواتهم.

6

تونس العاصمة

قبل الوصول إلى تونس العاصمة، تعبر السكة الحديدية منطقة رائعة من الجبال المشجرة .

وبعد أن يشق طريقه متعرجاً إلى ارتفاع سبعمائة وثمانين متراً، حيث يهيمن على منظر طبيعي هائل ورائع، يدخل تونس عبر منطقة حبال خمير. ثم سلسلة متعاقبة من الجبال والوديان المهجورة، حيث كانت المدن الرومانية قائمة ذات يوم .

هنا توجد بقايا ثاغاستي (المدينة النوميدية القديمة وهي على مشارف جندوبة اليوم)، مسقط رأس القديس أوغسطينوس الذي كان والده ديكوريون.(أي قائد لمجموعة تتألف من عشرة عساكر في عهد الرومان) .

وعلى مسافة أبعد من ذلك توجد ثوبورسيكوم هوميداروم، التي تغطي أطلالها سلسلة من التلال الخضراء المستديرة. وهناك أيضاً مادوري حيث ولد أبوليوس في نهاية عهد تراجان. سيكون من المستحيل تعداد جميع المدن الميتة، بالقرب من التي ستمر بها حتى تونس العاصمة.

فجأة، وبعد ساعات طويلة من السير على الطريق، يمكن رؤية الأقواس العالية لقناة مائية نصف مدمرة في السهل المنخفض، مقطوعة في بعض الأماكن، وكانت في يوم من الأيام تمتد من جبل إلى آخر .

هذه هي قناة قرطاج المائية التي ذكرها فلوبير في رواية سلامبو. ثم نمر بقرية جميلة ونتبع بحيرة مبهرة ونكتشف أسوار تونس العاصمة .

ها نحن في المدينة .

للحصول على الصورة الكاملة، تحتاج إلى تسلق تلة قريبة. يشبّه العرب تونس العاصمة بتونس بالسهل الممتد، والمقارنة في محلها. تمتد المدينة على امتداد السهل، وترتفع قليلاً بفعل تموجات الأرض التي تجعل أطراف هذه الرقعة العظيمة من المنازل الشاحبة تبرز من قباب المساجد وأبراج المآذن. الرقعة البيضاء متراصة ومتصلة وزاحفة بحيث يصعب تمييزها أو

حتى تخيل أنها بيوت. تحيط بها ثلاث بحيرات تلمع كسهول الفولاذ في الشمس الشرقية القاسية.

وإلى الشمال، من بعيد، سبخة الربوان؛ وإلى الغرب، سبخة السيجومي، التي تطل على المدينة؛ وإلى الجنوب، بحيرة الظهيرة العظيمة أو بحيرة تونس؛ ثم، بالاتجاه شمالاً، البحر، الخليج العميق، الذي يشبه بحيرة في محيطه الجبلي البعيد .

ثم من حول هذه المدينة المنبسطة مستنقعات قذرة حيث تتخمر القمامة، وحزام لا يمكن تصوره من البالوعات المتعفنة، وحقول منخفضة عارية حيث تسطع جداول رفيعة متعرجة كالأفاعي. هذه هي مجاري تونس، تتدفق تحت السماء الزرقاء. إنها تمضي في طريقها وتسمم الهواء، وتجرّ تدفقاتها البطيئة ذات الرائحة الكريهة عبر التربة المتعفنة نحو البحيرة التي انتهى بها الأمر إلى أن تمتلئ وتملأ كل الطريق، لأن المسبار يغوص في الوحل إلى عمق ثمانية عشر متراً: يجب الحفاظ على قناة في هذا الوحل حتى تتمكن القوارب الصغيرة من المرور.

ولكن منظر هذه المدينة الواقعة بين هذه البحيرات، في يوم من أيام الشمس الساطعة، في هذه البلاد العظيمة التي تغلقها من بعيد جبال أعلاها زغوان

التي تكاد تظهر دائماً تعلوها سحابة في الشتاء، هو أكثر ما يلفت النظر، وربما كان أكثر ما يمكن أن يجده المرء في أطراف القارة الأفريقية .

◊

لننزل من تلّتنا وندخل المدينة. إنها تضم ثلاثة أجزاء متميزة للغاية: الجزء الفرنسي، والجزء العربي والجزء اليهودي .

في الحقيقة، تونس ليست مدينة فرنسية ولا عربية، بل هي مدينة يهودية. إنها واحدة من الأماكن النادرة في العالم التي يبدو فيها اليهودي كما لو كان في وطنه، حيث يكاد يكون السيد ظاهرياً، حيث يظهر اطمئناناً هادئاً، و إن كان لا يزال مهزوزاً بعض الشيء.

إنه قبل كل شيء هو الذي تشوقنا رؤيته ومراقبته في هذه المتاهة من الشوارع الضيقة التي يتجول فيها أكثر سكان هذا الساحل الشرقي كله ألواناً وزينة وتزييناً وتبرجاً وتجملاً وتألّقاً.

وأين نحن من بلاد العرب أو من عاصمة آرلوكان المبهرة التي تسلى بخيال مدهش في تزيين أهلها. لا بد أنه مر بلندن وباريس وسانت بطرسبرج، هذا المصمم الإلهي الذي عاد من بلاد الشمال مملوءاً بالازدراء، فزين رعاياه بذوق لا يمله الذوق وخيال لا حدود له. فهو لم يكتفِ بإعطاء ملابسهم أشكالاً رشيقة وأصيلة ومبهجة فحسب، بل استخدم كل الألوان التي ابتكرها وألفها وحلم بها أرق الرسامين المائيين ليضفي عليها ألواناً دقيقة .

ولم يتسامح في الألوان العنيفة إلا بالنسبة لليهود، ولكنه منعهم من التصادم الوحشي جداً ونظم سطوع أزيائهم بجرأة حكيمة. أما بالنسبة للمغاربة، فقد كان المفضلين لديه، وقد أمتع نفسه بإلباسهم ألواناً متنوعة حتى إن العين عند رؤيتهم تشيب كما يشيب الثرى عنباً. آه من أجل هؤلاء، من أجل مشرقييه الطيبين، من أجل مشرقييه الممزوجين بالترك والعرب، صنع مجموعة من الألوان في غاية الرقة، وفي غاية النعومة والهدوء، وفي غاية الرقة والشفقة والانسجام، حتى أن السير فيها مداعبة طويلة للعين .

فهنا برانيس وجباب من الكشمير المحروق تتدفق كجداول من النور، ثم خرق رائعة من البؤس، وبجانبها جباب من الحرير، وسترات طويلة تنسدل حتى

الركبتين، وصدريات رقيقة توضع على الجسم تحت سترات ذات أزرار صغيرة مخدوشة على أطرافها .

وهذه الجبايات والسترات والصدريات والهياكل تمتزج وتختلط وتتراكب بأجود الألوان. كل شيء باللون الوردي والأزرق السماوي والبنفسجي والأخضر المائي والأزرق المائل إلى الزهري والأزرق السماوي والأزرق المائل إلى الأزرق الداكن و والأزرق المائل إلى الأوراق الميتة ولحم السلمون والبرتقالي والأرجواني الباهت والأزرق النبيذي والرمادي الداكن .

إنه موكب من السحر، من أضعف التدرجات اللونية إلى أكثر اللهجات حماسةً، هذه الألوان مغمورة في سيل من النغمات الرصينة بحيث لا شيء قاسٍ، لا شيء مبهرج، لا شيء عنيف على طول الشوارع، ممرات الضوء هذه، التي تدور بلا نهاية، محشورة بين المنازل المنخفضة المطلية باللون الأبيض.

وفي أي لحظة، تسد هذه الممرات الضيقة بالكامل تقريباً مخلوقات بدينة تبدو جوانبها وأكتافها وكأنها تلامس الجدارين مع كل تمايل في خطواتها. تتوج رؤوسهن بقبعات مدببة، غالبًا ما تكون فضية أو ذهبية، وهي نوع من قلنسوة الساحر مع وشاح يتدلى من الخلف. تطفو البلوزات ذات الألوان

الزاهية فوق أجسادهن الوحشية، كتلة من اللحم المنتفخ المتورم المتضخم. أفخاذهن عديمة الشكل محصورة في سراويل قصيرة بيضاء ملتصقة بالجلد. وتنتفخ سيقانهن وكواحلهن الممتلئة بالدهون في جوارب أو، عندما يرتدين ملابسهن، نوع من الحزام المصنوع من القماش الذهبي والفضي. يمشون بخطوات صغيرة وثقيلة على مضخات تجرّ؛ لأنهم لا ينتعلون إلا نصف نعل، وكعوبهم ترعى الرصيف وتضربه. هذه المخلوقات الغريبة المنتفخة هم اليهوديات، اليهوديات الجميلات!

فما أن يقترب سن الزواج، وهو السن الذي يبحث فيه الرجال الأغنياء عنهن، حتى تحلم فتيات بني إسرائيل بزيادة الوزن، لأن المرأة كلما كانت أثقل وزناً، جلبت الشرف لزوجها وزادت في اختياره كما تشاء. وفي الرابعة عشرة والخامسة عشرة من العمر، تكون هؤلاء الفتيات النحيفات الخفيفات أعجوبة في الجمال والبراعة والرشاقة .

إن بشرتهن الشاحبة المريضة بعض الشيء، مع رقتها المضيئة، وملامحهن الرقيقة، ملامح لطيفة من سلالة عريقة متعبة لم تتجدد دماؤها أبداً، وعيونهن الداكنة تحت جباههن الشاحبة التي تسحقها الكتلة الكثيفة الثقيلة من

الشعر الأسود الأشعث، ومشيتهن المرنة وهن يركضن من باب إلى آخر، تملأ الحي اليهودي في تونس برؤية طويلة من سالوميات صغيرات مزعجات .

ثم يفكرن في الزوج. ثم تبدأ التغذية القسرية التي لا يمكن تصورها والتي ستحولهم إلى وحوش. فبعد أن يتناولن في كل صباح كريات من المشهيات العشبية التي تفرط في تهييج المعدة، يقضين اليوم كله في تناول المعكرونة السميكة التي تجعلهن مرة ينتفخن انتفاخاً لا يصدق. فتنتفخ الصدور، وتنتفخ البطون، وتنتفخ الأرداف، وتتباعد الأفخاذ، ويفصل بينها الانتفاخ، وتختفي المعصمين والكاحلين تحت سيل كثيف من اللحم ويتهافت المعجبون عليهن ويحاكمونهن ويقارنون بينهن ويعجبون بهن كما لو كانوا في مسابقة للحيوانات السمينة. هذا كم هن جميلات ومرغوبات وفاتنات، هؤلاء الفتيات الهائلات المقبلات على الزواج !

ثم ترى هذه الكائنات الهائلة تمر بهن، وهن يرتدين مخروطاً حاداً من الشعر يسمى الكوفية، ويتدلى البشكير على ظهورهن، ويرتدين خماراً عريضاً من القماش البسيط أو الحرير الباهر، ويلبسن قمصاناً بيضاء تارة ومفصلة تارة أخرى، وينتعلن نعالاً تجرها الخفاف، تعرف باسم (الصبا)؛ كائنات لا يمكن وصفهن ولا يمكن وصف جمال وجوههن على أجسام هذه الفرسان، ولا تزال

وجوههن في الغالب جميلة. وفي بيوتهن التي يسهل فتحها في أيام السبت، وهو يوم الزيارات والمباهاة المقدسة، يستقبلن أصدقاءهن في الغرف البيضاء، حيث يجلسن متجاورين كالأصنام الرمزية، مغطاة بالحرير والحلي اللامعة، آلهة من لحم ومعدن، وعلى أرجلهن رباطاً ذهبياً وعلى رؤوسهم قرن ذهبي!

إن ثروة تونس في أيديهن، أو بالأحرى في أيدي أزواجهن الذين لا تفارقهم الابتسامة والترحاب والاستعداد لتقديم خدماتهم. ولا شك أنهن سيصبحن بعد بضع سنوات بعد أن يصبحن سيدات أوروبيات وسيلبسن على الطريقة الفرنسية، وسيصمن بعد ذلك امتثالاً للموضة من أجل إنقاص وزنهن. وهذا أفضل بكثير بالنسبة لهن وأسوأ بكثير بالنسبة لنا نحن المتفرجين .

أما في المدينة العربية فأكثر ما يثير الاهتمام فيها هو حي السوق بشوارعه الطويلة المقببة أو المعذبة بالألواح الخشبية التي تنزلق الشمس من خلالها شفرات نارية تبدو وكأنها تقطع المارة والتجار أثناء مرورهم. وهذه هي البازارات والأروقة المتعرجة والمتقاطعة حيث الباعة جالسون أو جاثمون بين بضائعهم في دكاكين صغيرة مغطاة ينادون بنشاط على الزبائن أو يبقون بلا حراك في هذه المحاريب من السجاد والأقمشة من كل الألوان

والجلود واللجم والسروج و اللجم المطرزة بالذهب، أو في مسابح النعال الصفراء والحمراء.

ولكل نقابة شارع خاص بها، وعلى طول الرواق الذي يفصله حاجز بسيط، يمكنك أن ترى جميع العمال من أصحاب الحرفة الواحدة يعملون بنفس الحركات. ومن المستحيل أن تصف حيوية هذه الأسواق الشرقية وألوانها وبهجتها، لأنك ستضطر إلى التعبير عن الإبهار والضوضاء والحركة في آن واحد .

أحد هذه الأسواق له طابع غريب لدرجة أن ذاكرته تظل باذخة ومستمرة كالحلم. إنه سوق العطور أو العطارين

في أكواخ ضيقة متشابهة، ضيقة جداً بحيث تشبه خلايا خلية نحل، مصطفة من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر وعلى جانبي رواق مظلم قليلاً، رجال شفافو البشرة، كلهم تقريباً شباب، يرتدون ملابس فاتحة اللون ويجلسون مثل بوذا، يحافظون على صلابة مدهشة في إطار من الشموع الطويلة المتدلية التي تشكل نمطاً صوفياً ومنتظماً حول رؤوسهم وأكتافهم.

وتنحني الشموع العلوية وهي الأقصر على العمامة؛ أما الشموع الأخرى وهي الأطول فتصل إلى الكتفين، أما الشموع الأكبر فتنزل على الذراعين. ومع ذلك، فإن الشكل المتناسق لهذه الزخرفة الغريبة يختلف قليلاً من محل إلى آخر. يبدو الباعة شاحبين، بلا إيماءات، بلا كلمات، وكأنهم باعة شمع في كنيسة من الشمع. حول ركبهم وأقدامهم، وفي متناول أيديهم إذا ما جاءهم مشترٍ، كل عطر يمكن تصوره محبوس في علب صغيرة، وقوارير صغيرة، وأكياس صغيرة .

تفوح رائحة البخور والعطورات بشكل مذهل إلى حد ما من أحد أطراف السوق إلى الطرف الآخر .

تُباع بعض هذه المستخلصات بسعر مرتفع للغاية، في شكل قطرات. ولعدّها، يستخدم الرجل كرة قطنية صغيرة يسحبها من أذنه ويعيدها إلى داخلها .

عندما يأتي المساء، تكون منطقة السوق بأكملها محاطة بأبواب ثقيلة عند مداخل الأروقة، مثل مدينة ثمينة محاطة داخل مدينة أخرى.

ومن ناحية أخرى، إذا كنت تسير في الشوارع الجديدة التي تؤدي إلى المستنقع المؤدي إلى بعض شبكات الصرف الصحي، تسمع فجأة نوعاً

غريباً من الغناء، تتخلله أصوات مكتومة مثل طلقات المدافع البعيدة، تنقطع للحظات قليلة لتعود إلى الظهور من جديد في الحال. تنظر حولك وتكتشف، على مستوى الأرض، عشرات الرؤوس الزنجية، ملفوفة بالأوشحة والمناديل والعمائم والخرق .

تنشد هذه الرؤوس لازمة عربية، بينما تنقر الأيدي، مسلحة بمعاول دك التربة، بإيقاع متناغم، في قاع خندق على الحجارة والملاط الذي سيشكل أساسات متينة لبيت جديد يبنى في هذه التربة الطينية الزيتية .

وعلى حافة الحفرة، يدق زنجي عجوز، قائد فرقة من هؤلاء القارعين بالحجارة، على الوقت بضحكة تشبه ضحكة القرد؛ ويضحك الآخرون جميعًا أيضًا، ويواصلون أغنيتهم الغريبة التي تتخللها ضربات قوية. ويضربون بحماسة ويضحكون في عبث أمام المارة الذين يتوقفون؛ والمارة أيضاً يستمتعون هم أيضاً؛ والعرب لأنهم يفهمون، والآخرون لأن المنظر مضحك؛ ولكن لا أحد بالتأكيد يستمتع بقدر ما يستمتع الزنوج، لأن الرجل العجوز يصرخ:

-لنضرب !

ويكررون جميعاً وهم يظهرون أسنانهم ويوجهون ثلاث ضربات بالمدقة: - على رأس الكلب الرومي !

وينادي الزنجي مقلدًا إيماءة السحق :

-هيا بنا نذهب ونضربه !

ويقولون جميعًا :

-على رأس الكلب الرومي !

وهكذا تنهض المدينة الأوروبية في ربع تونس الجديد !

هذا الحي الجديد! حين تفكر في أنه مبني كله على الحمأة التي تصلبت بالتدريج، مبني على مادة لا توصف، مصنوعة من كل ما تقذف به المدينة من قذارة، تعجب كيف لا يهلك السكان بكل مرض يمكن تخيله، وبكل حمى وبكل وباء. وبالنظر إلى البحيرة، التي تغزوها نفس مياه الصرف الصحي الحضرية وتملأها شيئًا فشيئًا، البحيرة، مكب نفايات مقززة تتصاعد منها أبخرة مقززة لدرجة أن قلبك في الليالي الحارة يتقزز من الاشمئزاز، لا يمكنك حتى أن تفهم لماذا لا تزال المدينة العريقة، الجاثمة بجوار هذه البالوعة، موجودة.

إن المرء ليفكر في الناس المحمومين الذين يشاهدهم في بعض قرى صقلية أو كورسيكا أو إيطاليا، وفي السكان المشوهين المتوحشين المتخمين المرتجفين الذين تسممهم الجداول الصافية والبرك الصافية الجميلة، فيظل المرء مقتنعاً بأن تونس لا بد أن تكون مرتعاً للأوبئة .

حسناً، لا! إن تونس مدينة صحية، مدينة صحية جداً. فالهواء العليل الذي تتنفسه هنا منعش ومهدئ، وهو أكثر ما تنفسته في حياتي تهدئةً للأعصاب المتوترة. وتونس بعد مقاطعة لاند، وهي أصحّ المقاطعات في فرنسا، هي المكان الذي تقل فيه جميع الأمراض العادية في بلادنا .

يبدو هذا غير محتمل، ولكنه صحيح. أيها الأطباء العصريون، يا أيها الأطباء العصريون، يا أيها العرافون العجيبون، يا أساتذة النظافة الذين ترسلون مرضاكم ليستنشقوا هواء القمم النقي أو الهواء الذي تنعشه خضرة الغابات العظيمة، تعالوا وانظروا إلى السماد الذي يغمر تونس؛ ثم انظروا إلى هذه الأرض التي لا تؤويها شجرة واحدة ولا تنعشها بظلها؛ أقيموا سنة في هذه البلاد، سهل منخفض حارق تحت شمس الصيف، ومستنقع هائل تحت أمطار الشتاء، ثم ادخلوا المستشفيات. إنها فارغة!

إذا نظرت إلى الإحصائيات سترى أننا نموت بما نسميه - ربما خطأ - موتنا الحسن، أكثر بكثير مما نموت بأمراضنا. ثم قد تسألون أنفسكم إن لم يكن العلم الحديث هو الذي يسممنا بتقدمه، وإن لم تكن المجاري في أقبائنا والحفر المجاورة لنبيذنا ومياهنا هي التي تقطر الموت في ديارنا، وهي مصادر أكثر نشاطاً ونشراً للأوبئة من تيارات القذارة التي تتدفق حول تونس في كل يوم، ستدركون أن هواء الجبال النقي أقل تهدئة من أنفاس روث المدينة العفنة هنا وأن رطوبة الغابات أكثر إخافة للصحة وأشد مبعثاً للحميات من رطوبة المستنقعات المتعفنة على بعد مائة فرسخ من أصغر غابة .

والواقع أن صحة تونس التي لا جدال فيها مدهشة ولا يمكن أن تعزى إلا إلى النقاء التام للماء الذي يشرب في هذه المدينة مما يثبت صحة أكثر النظريات الحديثة في طريقة انتشار الجراثيم المرضية.

والواقع أن ماء زغوان الذي يتجمع تحت الأرض على بعد نحو ثمانين كيلومتراً من تونس العاصمة يصل إلى البيوت دون أن يكون له أدنى اتصال بالهواء، ودون أن يتمكن من أن يجمع بالتالي أي بذور للعدوى .

وقد دفعتني الدهشة التي أثارها في نفسي تأكيد هذه السلامة إلى البحث عن وسيلة لزيارة أحد المستشفيات، وقد تلطف الطبيب الذي هو من أصيلي البلاد ويدير أهم مستشفى في تونس العاصمة فأدخلني إلى مستشفاه .

وما إن فُتح الباب الكبير المفتوح على صحن عربي واسع، يهيمن عليه رواق ذو أعمدة تحميه مصطبة، حتى كانت دهشتي وانفعالي بحيث لم أعد أفكر فيما جاء بي إلى هناك .

كان حولي، في جوانب الفناء الأربعة، زنازين ضيقة مشوية كالزنازين، فيها رجال وقفوا عندما رأونا وأقبلوا ليحشروا وجوههم الجوفاء الكالحة بين القضبان الحديدية. ثم صرخ أحدهم وهو يلوح بيده خارج القفص ببعض الإهانات.

ثم بدأ الآخرون يقفزون فجأة إلى أعلى وأسفل مثل الوحوش في حديقة حيوانات، وبدأوا في الصياح، بينما كان في الرواق في الطابق الأول عربي بلحية كبيرة يرتدي عمامة كثيفة وعنقه مطوق بقلائد نحاسية، وقد ترك ذراعه المغطاة بالأساور وأصابعه المحملة بالخواتم تتدلى بلا مبالاة فوق الدرابزين. ابتسم وهو يستمع إلى الضجيج. إنه رجل مجنون، حر طليق هادئ،

يظن نفسه ملك الملوك ويسود بسلام على المجانين الهائجين المحبوسين في الأسفل .

وأردت أن أستعرض هؤلاء المجانين المخيفين والمثيرين للإعجاب في زيهم الشرقي، وهم أكثر فضولاً وأقل تأثيراً ربما، بحكم غرابتهم، من مجانيننا الأوربيين المساكين.

سُمح لي بالدخول إلى زنزانة الأول. وكان مثل معظم رفاقه، كان الحشيش، أو بالأحرى الكيف، هو الذي وضعه في هذه الحالة. كان شاباً صغيراً جداً، شاحباً جداً، نحيفاً جداً، وكان يحدثني وهو ينظر إليّ بعينين ضخمتين مضطربتين. ماذا قال؟ طلب مني غليوناً ليدخنه وأخبرني أن أباه ينتظره .

ثم يرفع نفسه من حين إلى آخر كاشفاً عن أرجل عنكبوت بشري مغزلي تحت جبته وبُرنُسه: والزنجي، حارسه، عملاق لامع ذو عينين بيضاوين، يرمي به إلى الوراء على حصيرته بثقل واحد على كتفه يبدو أنه يسحق الرجل المهلوس الضعيف .

أما جاره فهو نوع من وحش أصفر متجهم الوجه، إسباني من ريبيرا، رابض ومتشبث بالقضبان، يطلب هو الآخر التبغ أو الكيف، بضحكة متواصلة تبدو وكأنها تهديد .

هناك اثنان منهم في الكوخ المجاور: مدخن آخر للقنب، يحيينا بإيماءات مسعورة، وعربي طويل القامة بأطرافه القوية، بينما يجلس جاره بلا حراك على كعبيه، ويحدق فينا بعينيه الشفافتين اللتين تشبهان عيني القط البري. إنه رجل نادر الجمال، هذا الرجل، ذو اللحية السوداء القصيرة المجعدة التي تجعل بشرته مشرقة ورائعة. أنفه دقيق، ووجهه طويل، أنيق ومتميز تماماً. وهو مزابي، وقد دفعه إلى الجنون موت ابنه الصغير الذي كان يبحث عنه منذ يومين .

ثم كان هناك رجل عجوز يضحك ويصيح بنا وهو يرقص كالدب: (مجنون، مجنون، كلنا مجانين، أنا وأنت والطبيب والحارس والباي وكلنا مجانين!)

إنه يصيح بالعربية، لكننا نفهم ما يقول، فظيع جداً تقليده، لا تقاوم أصابعه التي يشير بها إلينا. يشير إلينا واحدًا واحدًا ويضحك، لأنه متأكد من أننا مجانين، ويكرر: "نعم، نعم، أنتم، أنتم، أنتم، أنتم، أنتم مجانين !

وتعتقد أنك تشعر بنفحة من الجنون تسري في روحه، نفحة معدية ومرعبة من هذا المجنون الشرير.

وننصرف، وننظر إلى مربع السماء الأزرق العظيم الذي يحوم فوق هذه الحفرة الملعونة. ثم يظهر سيد هؤلاء المجانين جميعاً، وهو لا يزال مبتسماً هادئاً وسيماً كملك ساحر، العربي طويل اللحية، متكئاً على الرواق تاركاً الشمس تسطع على ألف قطعة نحاسية وحديدية وبرونزية ومفاتيح وخواتم ومسامير يزين بها بفخر ملكه الوهمي .

هذا الرجل الحكيم موجود هنا منذ خمسة عشر عاماً، يتجول ببطء وهدوء، مهيباً وهادئاً، مهيباً جداً، في الواقع، لدرجة أنه يُستقبل باحترام .

وبصوت مهيمن يردّ ببضع كلمات تعني: "مرحباً بك، أنا سعيد برؤيتك". ثم يتوقف عن النظر إلينا .

منذ خمسة عشر عاماً، لم يأوِ هذا الرجل إلى فراشه. ينام وهو جالس على درجة في منتصف السلم الحجري للمستشفى. لم نره مستلقياً أبداً .

ما الذي يهمني الآن بشأن المرضى الآخرين الذين هم من القلة بحيث يمكن عدهم في العنابر البيضاء الكبيرة، حيث يمكنك أن ترى من خلال النوافذ

المدينة المشرقة الممتدة التي تبدو قباب القباب والمساجد فوقها وكأنها فقاعات؟

انصرفت مضطرباً بعاطفة مشوشة، مملوءة بالشفقة وربما بالحسد على بعض هؤلاء المهلوسين الذين يحتويهم هذا السجن، المجهول بالنسبة لهم، الحلم الذي وجدته، ذات يوم، في قاع الغليون الصغير المحشو ببضع أوراق صفراء .

وفي مساء نفس اليوم عرض عليّ أحد المسؤولين الفرنسيين متسلحاً بسلطة خاصة أن يسمح لي بالدخول إلى بعض أماكن المتعة العربية السيئة، وهو أمر صعب جداً على الأجانب .

وعلاوة على ذلك كان لا بد أن يرافقنا أحد أعوان البوليس البايليكي الذي لولاه لما فتح أمامنا أي باب، ولا حتى باب أخبث بيوت الدعارة الأهلية .

مدينة الجزائر العربية مليئة بالهياج الليلي. أما هنا فبمجرد حلول المساء، تكون تونس العاصمة ميتة .

وتبدو الشوارع الضيقة المتعرجة غير المستوية وكأنها ممرات مدينة مهجورة نسيت بعض أجزائها إطفاء الغاز.

ها نحن أولاء بعيدون في هذه المتاهة من الجدران البيضاء، وقد دخلنا إلى بيت يهوديات يرقصن "الرقص الشرقي". وهذه الرقصة قبيحة، قبيحة، لا تثير فضول الهواة إلا لإتقان الفنان لها. ثلاث شقيقات، ثلاث فتيات في غاية الأناقة في هندامهن، كنّ يؤدين حركاتهن غير النقية تحت عين أمهنّ وهي كرة صغيرة ضخمة من الشحم الحي يعلوها قرن من الورق الذهبي وتتسول نفقات البيت العامة، بعد كل أزمة من أزمات الخوف التي كانت تصيب بطون أطفالها. حول غرفة المعيشة ثلاثة أبواب نصف مفتوحة أظهرت الطبقات السفلية لثلاث غرف نوم. فتحتُ باباً رابعاً فرأيت امرأة مستلقية على الفراش، وقد بدت لي جميلة في منظرها. أم وراقصتان وخادمتان زنجيتان ورجل غير ملحوظ كان يراقب من وراء ستارة بينما كانت أخواته يتحركن من أجلنا. وكنت على وشك الدخول إلى غرفة نوم زوجته الشرعية التي كانت حاملاً، وزوجة ابنه وزوجة ابنه وزوجة أخيه الأوغاد الذين حاولوا عبثاً أن يختلطوا بنا ولو لليلة واحدة فقط مع العائلة. وللتعويض عن هذا الرفض للسماح لي بالدخول، أطلعتني هذه السيدة على أول طفل من أطفالها طفلة صغيرة في الثالثة أو الرابعة من عمرها كانت تقوم بـ "رقصة البطن."

غادرت في اشمئزاز كبير .

مع احتياطات لا حصر لها، ثم أُخذت بعد ذلك إلى بيوت المحظيات العربيات الكبيرات. وكان علي أن أظل أراقب في نهاية الشوارع وأفاوض وأهدد، لأن السكان الأصليين لو علموا أن الرومي دخل بيوتهن لهجروها وخجلوا وخربوها. ورأيت هناك فتيات سمراوات سمينات، لسن جميلات جداً، في أكواخ مليئة بخزائن الآيس كريم .

وكنا نفكر في العودة إلى الفندق عندما اقترح علينا ضابط الشرطة المحلي أن نذهب ببساطة إلى بيت دعارة، مكان للحب له سلطة فتح بابه .

وها نحن هنا مرة أخرى، نتلمس طريقنا في الأزقة المظلمة التي لا تُنسى، نشعل أعواد الثقاب لنتجنب السقوط، نتعثر في الحفر، نصطدم بالبيوت بأيدينا وأكتافنا ونسمع أحياناً أصواتاً وأصوات موسيقى و إشاعات عن حفلة صاخبة قادمة من الجدران، مكتومة كما لو كانت بعيدة ومكتومة وغامضة تصم الآذان بشكل مخيف وغامض. نحن في وسط منطقة الفجور.

اختبأنا إلى اليمين واليسار بينما كان العميل يضرب بقبضتيه وهو يصيح بعبارة عربية، أو أمر .

وصوت خافت، صوت امرأة عجوز، يجيب من وراء اللوح، ونستطيع الآن أن نسمع أصوات الآلات الموسيقية وصراخ النساء العربيات في أعماق هذا الوكر.

لا يردن فتح الباب. يغضب العميل، وتخرج من حنجرته كلمات مستعجلة مبحوحة وعنيفة. وأخيراً، يُفتح الباب، فيدفعه الرجل، ويدخل كما لو كان في مدينة مفتوحة، وبإشارة منتصرة جميلة يبدو أنه يقول لنا: "اتبعوني."

نتبعه إلى أسفل ثلاث درجات إلى غرفة منخفضة حيث ينام أربعة أطفال عرب، أصغرهم في المنزل، على سجاد على طول الجدران.

ولا تزال امرأة عجوز، وهي واحدة من هؤلاء السكان الأصليين المسنين الذين هم عبارة عن حزم من الخرق الصفراء المربوطة حول شيء يتحرك، ويخرج منها ساحرة موشومة الرأس غير محتملة، تحاول منعنا من التقدم. ولكن الباب يغلق مرة أخرى، وندخل غرفة أولى يقف فيها بضعة رجال لم يتمكنوا من الدخول إلى الغرفة الثانية، وهم يسدون الفتحة ويستمعون باهتمام إلى الموسيقى الغريبة الحامضة التي تعزف هناك. وكان العميل أول من دخل، فتنحى الرجال النظاميون جانباً، ووصلنا إلى غرفة ضيقة مستطيلة

حيث أكوام من العرب يجلسون القرفصاء على ألواح خشبية على طول الجدارين الأبيضين، حتى وصلنا إلى الخلف .

وهناك، على سرير فرنسي كبير احتل عرض الغرفة كله، وقف هرم من عرب آخرين متراصين ومختلطين على غير عادة، كومة من البوص يبرز منها خمسة رؤوس معممة، وقد تكدسوا على غير العادة .

وأمامهم، في أسفل السرير، وعلى مقعد مواجه لنا خلف طاولة من خشب الماهوجني مثقلة بالكؤوس وزجاجات البيرة وفناجين القهوة والملاعق الصغيرة المصنوعة من خشب البيوتر كانت أربع نساء جالسات يغنين لحناً جنوبياً متقطعاً ومجروراً، يرافقهن بعض الموسيقيين اليهود على آلات موسيقية.

يرتدين كما لو أنهن يرتدين ملابس من القصص الخيالية، وكأنهن أميرات من ألف ليلة وليلة، و إحداهن، وهي في الخامسة عشرة من عمرها تقريباً، جميلة بشكل مدهش، مثالية جداً، نادرة جداً، لدرجة أنها تضيء هذا المكان الغريب، وتجعله شيئاً غير متوقع، رمزي ولا ينسى .

الشعر ممسوك إلى الوراء بوشاح ذهبي يقطع الجبهة من الصدغ إلى الصدغ. وتحت هذا الشريط المعدني المستقيم عينان هائلتان، بنظرة ثابتة لا شعور فيها ولا أثر، عينان طويلتان سوداوان بعيدتان يفصل بينهما أنف صنم يقع على فم طفل صغير ينفتح ليغني ويبدو أنه يعيش وحده في هذا الوجه. إنه شكل بلا فروق دقيقة، ذو انتظام غير متوقع، بدائي ورائع، مصنوع من خطوط بسيطة جداً بحيث تبدو أشكالاً طبيعية وفريدة لهذا الوجه البشري .

في أي شكل نصادفه، يمكننا أن نستبدل سمة أو تفصيلاً بشيء مأخوذ من شخص آخر. أما في هذا الرأس لشاب عربي، فلا يمكن تغيير أي شيء في هذا الرأس، فهذا الرسم نموذجي ومثالي.

هذا الجبين البسيط، وهذا الأنف، وهذه الوجنتان اللتان لا تتشكلان بشكل غير محسوس واللتان تتلاشيان عند نقطة الذقن الدقيقة، وتؤطران في شكل بيضاوي لا يمكن أن يكون له مثيل من اللحم البني قليلاً، العينين الوحيدتين والأنف الوحيد والفم الوحيد الذي يمكن أن يكون هناك، هي المثل الأعلى لتصور الجمال المطلق الذي تسعد به نظراتنا، ولكن حلمنا وحده قد لا يشعرنا بالرضا التام عنه. و إلى جانبها فتاة صغيرة أخرى، ساحرة أيضاً، ولكنها ليست استثنائية، من تلك الوجوه البيضاء الناعمة التي يبدو

لحمها كالعجينة المصنوعة من اللبن. وبجانب هاتين النجمتين تجلس امرأتان أخريان، تبدوان بهيميتين، برأسين قصيرين وعظمين بارزين في الوجنتين، وهما من تلك الكائنات الضائعة التي تزرعها القبائل في الطريق، ثم تلتقطها وتضيعها مرة أخرى، ثم تغادرها ذات يوم في أثر بعض فرق السباهيس (أو الصبايحية وهم من فرق الخيالة لعسكر الباي) الذين يأخذونها إلى المدينة .

تغنيان وهما تنقران على الدربوكة بأيديهما المخضبة بالحناء، ويرافقهما الموسيقيون اليهود على القيثارات الصغيرة والدفوف والمزامير عالية النبرة. الجميع يستمع، دون أن يتكلم، دون أن يضحك، بوقار ووقار .

أين نحن؟ في معبد دين همجي، أم في بيت عام؟

في بيت عام؟ نعم، نحن في بيت عام، وما من شيء في العالم أعطاني إحساساً غير متوقع، وصريحاً وملوناً أكثر من دخولي هذه الغرفة الطويلة المنخفضة، حيث هؤلاء الفتيات اللاتي يرتدين فيما يبدو، ملابس عبادة مقدسة، ينتظرن نزوة أحد هؤلاء الرجال الجادين الذين يبدو أنهم يهمسون بالقرآن في وسط المجون .

يظهر لي أحدهم وهو جالس أمام فنجان قهوته الصغير، وعيناه مرفوعتان مليئتان بالتأمل. إنه الشخص الذي كان يحمل الصنم، وكل الآخرين تقريباً ضيوف. وهو يقدم لهم المرطبات والموسيقى، ومنظر هذه الفتاة الجميلة، إلى أن يحين الوقت الذي يطلب فيه من كل واحد منهم أن ينصرف إلى بيته. فينصرفون وهم يحيونه بإيماءات مهيبة. إنه وسيم، هذا الرجل الذواق، شاب، طويل القامة، ذو بشرة عرب المدينة شفافة، يزيدها سواداً ولحية سوداء حريرية لامعة بعض الشيء، نادرة على وجنتيه.

تتوقف الموسيقى ونصفق. يتم تقليدنا. نجلس على السلالم وسط كومة من الرجال. وفجأة تضربني يد سوداء طويلة على كتفي وصوت من تلك الأصوات الغريبة التي يحاول بها السكان الأصليون التحدث بالفرنسية يقول لي: - أنا، لست من هنا، فرنسي مثلك .

وأستدير فأرى عملاقاً يرتدي برنساً، وهو من أطول العرب الذين قابلتهم في حياتي وأكثرهم نحافة وعظماً .

-قلتُ مذهولاً: من أين أنت؟

-من الجزائر !

-أراهن أنك من القبائل، أليس كذلك؟

-نعم، موسي .

فقفز ضاحكاً فرحاً لأنني خمنت أصله، وقال وهو يشير إلى رفيقه :

-وهو أيضاً .

-آه، جيد .

كان ذلك خلال فترة من الفترات الفاصلة .

كانت النساء اللاتي لم يكن أحد يتحدث إليهن ساكنات كالتماثيل، وبدأت أتحدث إلى جاريّ من الجزائر بفضل مساعدة الشرطي المحلي.

وعلمت أنهم رعاة يملكون أملاكاً بالقرب من بجاية بالقطر الجزائري، وأنهم كانوا يحملون في طيات برانيطهم مزامير من بلادهم يعزفون عليها في المساء للتسلية. ولا شك أنهما كانا يريدان أن تكون موهبتهما مثار إعجاب، وقد أطلعاني على قصبتين رقيقتين فيهما ثقوب وهما قصبتان حقيقيتان قطعتا على ضفاف النهر .

توسلت إليهما أن يُسمح لهما بالعزف، وسرعان ما صمت الجميع بأدب جمّ .

آه، ذلك الإحساس المدهش واللذيذ الذي تسلل إلى قلبي مع النغمات الأولى الخفيفة والغريبة والمجهولة وغير المتوقعة من هذين الصوتين الصغيرين لهاتين القصبتين الصغيرتين المدفوعتين في الماء. كان صوتاً رقيقاً، متقطّعا، متماوجاً: أصواتاً تتطاير، واحدة بعد الأخرى دون أن تجتمع، دون أن تجد بعضها بعضاً، دون أن تتحد أبداً؛ أغنية كانت تتلاشى دائماً، وتبدأ دائماً من جديد، وتمرّ وتطفو حولنا، كأنها نفحة من روح الأوراق، من روح الغابة، من روح الجداول، من روح الريح، التي دخلت مع هذين الراعيين العظيمين من جبال القبائل إلى هذا البيت العام في إحدى ضواحي تونس العاصمة.

7

نحو القيروان

11 ديسمبر غادرنا تونس في طريق جميل يتخطى في البداية سفح تل، ويتبع البحيرة إلى حين، ثم يعبر سهلاً. وكان الأفق الواسع، الذي تغلقه الجبال بقممها البخارية، عاريًا تمامًا، لا تراه من مكان إلى آخر إلا القرى البيضاء، حيث ترى من بعيد على بعدها، وتهيمن على كتلة المنازل غير الواضحة المآذن المدببة والقباب الصغيرة للقباب .

وفي جميع أنحاء هذه الأرض المتعصبة، نراها مراراً وتكراراً، هذه القباب الصغيرة المبهرة للقباب، إما في سهول الجزائر الخصبة أو تونس، أو كالمنارة على ظهر الجبال المستديرة، أو في أعماق غابات الأرز أو الصنوبر، أو على حافة الوديان العميقة في غابة من أشجار العدس أو البلوط الفليني، أو في الصحراء الصفراء بين نخلتين تميلان إلى أعلى، إحداهما إلى اليمين

والأخرى إلى اليسار، وتسمحان للظل الخفيف الناعم من نخلهما أن يقع على قبة اللبن .

إنها تحوي، كالبذرة المقدسة، عظام المرابطين الذين يلقحون تربة الإسلام التي لا حدود لها، فتجعله ينبت من طنجة إلى تمبكتو، ومن القاهرة إلى مكة، ومن تونس إلى القسطنطينية، ومن الخرطوم إلى جاوة، أقوى الديانات التي روضت الضمير الإنساني وأكثرها غموضاً وهيمنة.

صغيرة، مستديرة، منعزلة، بيضاء شديدة البياض بحيث ينبعث منها بصيص من النور، تبدو وكأنها بذرة إلهية ألقاها بيدها على العالم ذلك الزارع العظيم للإيمان، محمد أخو عيسى وموسى .

لوقت طويل، سرنا على طول الطريق، أربعة خيول على التوالي، عبر سهول لا نهاية لها مزروعة بالكروم أو مزروعة بالحبوب التي بدأت للتو في الإنبات .

ثم فجأة توقفت الطريق، الطريق الجميلة التي شيدت عليها الجسور والطرق السريعة منذ الحماية الفرنسية، فجأة. انهار جسر خلال الأمطار الأخيرة، جسر

كان صغيرًا جدًا بحيث لم يكن يسمح بمرور كتلة المياه التي نزلت من الجبال.

هبطنا بصعوبة بالغة إلى الوادي، وبعد أن صعدنا بصعوبة بالغة إلى الجانب الآخر استأنفنا الطريق الجميل الذي يعد أحد الشرايين الرئيسية في تونس كما يقولون باللغة الرسمية. لبضعة كيلومترات، استطعنا الهرولة لبضعة كيلومترات إلى أن صادفنا جسراً صغيراً آخر كان قد انهار هو الآخر تحت ضغط المياه. ثم، بعد ذلك بقليل، بقي الجسر، وحيداً غير قابل للتدمير، مثل قوس نصر صغير، بينما كان الطريق، الذي جرفته المياه من الجانبين، يشكل هاويتين حول هذا الخراب الجديد .

قرب منتصف النهار، رأينا بناءً فريداً أمامنا. على حافة الطريق، الذي كاد يختفي الآن، كتلة كبيرة من المساكن الملتحمة ببعضها البعض، وهي بالكاد أعلى من خصر الرجل، محمية تحت سلسلة متصلة من الأقبية التي يرتفع بعضها عن بعض قليلاً، وتهيمن على هذه القرية الفريدة وتعطيها مظهر مجموعة من القبور. كلاب بيضاء تركض بشراسة فوقها وتنبح علينا. تُدعى هذه القرية الصغيرة قرمبالية وقد أسسها محمد قرمبالي، وهو زعيم أندلسي محمدي طردته إيزابيلا الكاثوليكية من إسبانيا .

نتناول الغداء هنا، ثم ننطلق مرة أخرى. يمكن رؤية الآثار الرومانية في كل مكان من بعيد من خلال التلسكوب. أولاً فيكو أوريليانو، ثم سياغو الأكبر، حيث لا تزال المباني البيزنطية والعربية .

ولكن الآن الطريق الجميل، الشريان الرئيسي لتونس، ليس أكثر من مجرد حفرة مخيفة .

ففي كل مكان، ثقبته مياه الأمطار وقوّضته والتهمته. في بعض الأحيان، لم تعد الجسور المنهارة أكثر من كتلة من الحجارة في واد، وأحياناً أخرى بقيت على حالها، بينما شقت المياه طريقها إلى أماكن أخرى غير عابئة بها، وشقت خنادق بعرض خمسين متراً عبر سدود الجسور والجسور .

لماذا كل هذا الدمار والخراب؟ يمكن لطفل أن يعرف ذلك بلمح البصر. فجميع القنوات، وهي ضيقة جداً لهذا السبب، تنخفض عن مستوى المياه بمجرد هطول الأمطار. وبعضها يغطيها السيل وتعترضها الأغصان التي يجرها فتنقلب على بعضها الآخر، ويأبى التيار المتقلب أن يسلك تحتها ما يليه مما ليس في مجراه المعتاد، ويستأنف سير السنين الأخرى رغمًا عن المهندسين. إن هذا الطريق من تونس إلى القيروان مدهش للنظر. فبدلاً من أن يساعد على مرور الناس والمركبات، فإنه يجعل ذلك مستحيلاً ويخلق

أخطاراً لا تحصى. فالطريق العربي القديم، الذي كان جيداً، قد دُمر وحلت محله سلسلة من الحفر والقناطر المهدمة والأخاديد والحفر. كان يجب إعادة ترميم كل شيء قبل الانتهاء منه. وفي كل مرة تهطل فيها الأمطار، يبدأ العمل من جديد، دون أن نعترف، ودون أن نتفق على أن هذه السلسلة من الجسور المتهالكة يجب أن يعاد بناؤها دائمًا .

لقد أعيد بناء جسر النفيضة مرتين. وقد تم جرفه مرة أخرى. الجسر الموجود في واد الحمام تم تدميره للمرة الرابعة. هذه هي جسور السباحة وجسور الغطس والجسور المائلة. وحدها الجسور العربية القديمة يمكنها الصمود أمام أي شيء .

في البداية تشعر بالغضب، لأن السيارة يجب أن تهبط في الوديان التي لا يمكن عبورها تقريباً حيث تعتقد أنك ستغرق، ولكن بعد ذلك ينتهي بك الأمر بالضحك على الهزلية المذهلة لكل ذلك .

لتجنب هذه الجسور المخيفة، عليك أن تقوم بانعطافات كبيرة، فتذهب شمالاً ثم تعود جنوباً ثم تنعطف شرقاً ثم تتجه غرباً مرة أخرى. كان على السكان الأصليين المساكين أن يستخدموا الفؤوس والمعاول والفؤوس والخطاطيف

لشق طريق جديد عبر غابة من أشجار البلوط والأرز وأشجار المصطكي والخلنج والصنوبر الحلبي، بعد أن دمرنا الطريق القديم .

وسرعان ما اختفت الشجيرات، ولم نعد نرى سوى مساحة متموجة تتخللها الوديان، حيث كانت تظهر من مكان إلى آخر إما عظام شاحبة لجيفة ذات أضلاع بارزة، أو جيفة التهمتها الطيور الجارحة والكلاب .

لم تهطل قطرة ماء على هذه الأرض لمدة خمسة عشر شهراً، وماتت نصف الحيوانات جوعاً. وجثثها مبعثرة في كل مكان، تسمم الرياح وتعطي هذه السهول مظهر بلاد جرداء أكلتها الشمس وخربها الطاعون. الكلاب فقط هي السمينة التي تتغذى على هذه اللحوم المتعفنة.

وفي كثير من الأحيان، يمكن رؤية اثنين أو ثلاثة منهم ينقضون على نفس القطعة من العفن. وتجدها متصلبة الأرجل تشدّ ساق الجمل الطويلة أو ساق الحمار القصيرة، وتسلخ صدر الحصان أو تنبش في بطن البقرة. ومن بعيد ستجدهم يتجولون بحثاً عن الجيف، وأنوفهم في النسيم، وشعورهم كثيفة وأنوفهم مدببة .

ومن الغريب أن تفكر في أن هذه التربة التي أحرقتها لمدة عامين شمس عنيدة وغمرتها لمدة شهر بوابل من المطر، ستصبح بحلول مارس وأبريل مرجاً لا حدود له، بأعشاب بطول كتفي رجل، وأزهار لا حصر لها قلما نرى مثلها في حدائقنا. وفي كل سنة، عندما تهطل الأمطار، تمر تونس كلها، على بعد أشهر قليلة، بأشد القحط وأخصب الخصب، فتكون تونس كلها في كل عام في أشد ما تكون من الجدب والخصب. فمن صحراء خالية من نبتة عشب، تتحول فجأة، وفي ظرف أيام قليلة تقريبا، كما لو كانت معجزة، إلى نورماندي أخضر بجنون، نورماندي مخمور بالحرارة، يقذف في محاصيله مثل هذه العصارات من النسغ الذي يخرج من الأرض وينمو ويصفر وينضج على مرأى من الناس .

يزرعها العرب من مكان إلى آخر بطريقة فريدة من نوعها. ويعيشون إما في القرى الواضحة التي ترى من بعيد، أو في الجورب أو الأكواخ المصنوعة من أغصان الأشجار، أو في الخيام البنية المدببة المختبئة كالفطر الضخم خلف الأحراش الجافة أو غابات الصبار. وعندما كان الحصاد الأخير وفيراً، كانوا يقررون في وقت مبكر الاستعداد للحراثة؛ ولكن عندما كان الجفاف قد أوشك أن يجوعهم، كانوا ينتظرون عادة هطول الأمطار الأولى للمخاطرة

بآخر ما لديهم من الحبوب أو لاستعارة البذور من الحكومة التي كانت تقرضهم إياها بسهولة تامة. وما إن تبلل أمطار الخريف الغزيرة الأرض حتى يذهبوا إلى القائد الذي يملك الأرض الخصبة، أو المالك الأوروبي الجديد الذي غالباً ما يؤجرها بثمن أعلى، ولكنه لا يسرقهم ويعدل بينهم في منازعاتهم عدلاً صارماً لا غش فيه، ويعينون الأرض التي اختاروها ويحددون حدودها ويستأجرونها لموسم واحد ثم يشرعون في زراعتها.

ثم ترى مشهداً مذهلاً. فكلما غادرت المناطق الصخرية القاحلة ووصلت إلى الأجزاء الخصبة تظهر لك من بعيد صور ظلية غير محتملة للجمال الحراثة المسخرة للمحاريث. ويجرّ الوحش الطويل الرائع ببطء الأداة الخشبية الهزيلة التي يدفعها الأعرابي الذي يرتدي ما يشبه القميص. وسرعان ما كانت هذه المجموعات المدهشة تتكاثر كلما اقتربت من مركز مطلوب. وهي تروح وتجيء متقاطعين في السهل، متقاطعين في كل مكان، في هيئة لا يمكن التعبير عنها من حيوان وآلة وإنسان، ملتحمين معاً فيما يبدو، مكونين كائناً واحداً مروعاً ومضحكاً مهيباً .

يتم استبدال الجمل من وقت لآخر بالبقر والحمير، وأحياناً بالنساء، ويحل محلهما الجمل من وقت لآخر. وقد رأيت إحداهن تقترن بالحمار وتجره بأقصى ما يستطيع الوحش من قوة، بينما الزوج يدفع هذا الفريق المثير للرثاء ويثيره .

ليس الثلم العربي هو ذلك الثلم الجميل العميق المستقيم الذي يحرث به الحراث الأوروبي، بل هو نوع من الأثل الذي يجري على الأرض بشكل متقلب حول كتل أشجار العناب.

هذا المزارع اللامبالي لا يتوقف أبدًا أو ينحني لسحب نبتة طفيلية مدفوعة أمامه. إنه يتجنبها بتحويل مسارها، ويحترمها، ويحبسها كما لو كانت متقلبة، كما لو كانت مقدسة، في دوائر حرثه الملتوية. إن حقوله مليئة بكتل من الشجيرات، بعضها صغير جداً لدرجة أن جهداً بسيطاً من اليد يمكن أن يقتلعها. إن مجرد منظر هذا المحصول المختلط من الحشائش والحبوب يثير العين إلى درجة تجعلك ترغب في التقاط معول وتنظيف الأرض حيث تتنقل هذه الثالوثات الرائعة من الجمال والمحاريث والأعراب بين أشجار العناب البرية .

في هذه اللامبالاة الهادئة، في هذا الاحترام للنبات الذي ينمو على أرض الله، يمكنك أن ترى الروح القدرية للشرقي .

إذا كانت هذه النبتة قد نمت هناك، فلا بد أن يكون ذلك لأن السيد أراد ذلك. لماذا يبطل عمله ويدمرها؟ أليس من الأفضل أن نبتعد عنها ونتجنبها؟ إذا كانت نمت حتى غطت الحقل كله، ألا توجد أرض أخرى أبعد؟ لماذا تحمل العناء، والقيام بلفتات أخرى، وبذل جهد آخر، و إضافة التعب، مهما كان طفيفًا، إلى العمل الذي لا غنى عنه؟

وفي البيت، كان الفلاح الغاضب الغيور على الأرض أكثر من غيرته على زوجته، يرمي بنفسه، وهو يحمل معولاً في يده، على العدو الذي دفعه إلى بيته، ودون أن يهدأ له بال حتى يقهره، كان يضرب، بحركات الحطابين العظيمة، الجذر العنيد المغروس في الأرض .

ما الذي يهمهم هنا؟ إنهم لا يزيلون الحجر أبدًا، بل يكتفون بالالتفاف حوله. في ساعة واحدة، يمكن في بعض الحقول، بواسطة رجل واحد، أن ينظفوا بعض الحقول من الصخور الرخوة التي تجبر المحراث على تموجات لا حصر لها. لن يفعلوا ذلك أبدًا .

الصخور موجودة، دعها تبقى هناك. أليست هذه مشيئة الله؟

حين يفرغ البدو من زرع الأرض التي اختاروها، يرحلون، ويبحثون في مكان آخر عن مرعى لقطعانهم ويتركون عائلة واحدة ترعى المحاصيل .

نحن الآن في ضيعة شاسعة مساحتها مئة وأربعون ألف هكتار، تدعى "النفيضة" وهي ملك للفرنسيين.

وقد كان شراء هذا العقار الضخم الذي باعه الجنرال خير الدين، وزير الباي السابق، أحد العوامل الحاسمة في النفوذ الفرنسي في تونس .

والظروف التي أحاطت بعملية الشراء هذه طريفة ومميزة في آنٍ واحد. فبعد أن اتفق الرأسماليون الفرنسيون والجنرال على السعر، ذهبوا إلى القاضي ليحرر العقد؛ ولكن القانون التونسي يتضمن نصا خاصا يسمح للجيران المتاخمين للعقار الذي يباع بالمطالبة بالأفضلية بسعر متساو .

ونعني بالثمن المتساوي في تونس مبلغاً متساوياً بأي عملة متداولة؛ ولكن القانون الشرقي الذي يترك دائماً باباً مفتوحاً للمراوغة ينص على أن الثمن يدفعه الجار المطالب بالأفضلية بعملات متماثلة: نفس العدد من الأوراق المالية من نفس النوع، أو أوراق نقدية من نفس القيمة، أو عملات ذهبية أو فضية أو نحاسية. وأخيرا، ولكي يجعل هذه الصعوبة غير قابلة للحل في

بعض الحالات، فإنه يسمح للقاضي بأن يأذن للمشتري الأول بأن يضيف إلى المبالغ المنصوص عليها حفنة من النقود الصغيرة غير المحددة وبالتالي غير المعروفة، مما يجعل من المستحيل تماما على الجيران المجاورين أن يقدموا مبلغا مماثلا تماما وماديا.

وطلب الفرنسيون من القاضي، الذي عارضه أحد الإسرائيليين، وهو السيد ليفي، أحد جيران النفيضة، الإذن بإضافة هذه الحفنة من النقود إلى السعر المتفق عليه. رُفض الإذن .

ولكن القانون الإسلامي مليء بالطرق والوسائل، وظهرت وسيلة أخرى. وهي شراء هذه القطعة الهائلة من الأرض التي تبلغ مساحتها مائة وأربعين ألف هكتار، ينقصها شريط طوله متر واحد يمتد على طول الطريق. ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك أي اتصال مع أي جار آخر؛ وظلت الشركة الفرنسية الأفريقية رغم كل جهود أعدائها والوزارة البايليكية، هي صاحبة النفيضة

وقد قامت بأعمال كبيرة في جميع الأجزاء الخصبة وغرست الكروم والأشجار وأسست القرى وقسمت الأرض إلى أجزاء منتظمة مساحة كل منها عشرة

هكتارات، حتى يتسنى للعرب أن يختاروا ويشيروا إلى اختيارهم دون أي خطأ محتمل.

كنا نقطع هذه الولاية التونسية قبل أن نصل إلى الطرف الآخر من الطريق، وذلك على مدى يومين. وكانت الطريق، وهي عبارة عن مسلك بسيط بين كتل من أشجار العنا ب، قد تحسّنت منذ مدّة من الزمن، وكنا نتطلّع إلى الوصول قبل حلول الليل إلى بو فيشة حيث كان من المقرّر أن نبيت هناك، عندما رأينا جيشاً من العمّال من جميع الأجناس منهمكين في استبدال هذا الطريق السالك بطريق فرنسي، أي بسلسلة من الأخطار، وكان علينا أن نسرع الخطى من جديد. هؤلاء العمال مدهشون. فالزنجي السمين ذو العينين الكبيرتين البيضاوين والأسنان اللامعة يعمل إلى جانب العربي ذي الملامح النحيلة، والإسباني الأشعر، والمغربي والمالطي والحفار الفرنسي الذي ضل الطريق، ولا ندري كيف ولماذا، إلى هذه البلاد؛ وهناك أيضاً اليونانيون والأتراك وجميع أنواع الشاميين، ويتساءل المرء عن متوسط أخلاق هذا الحشد واستقامته وطيبة قلبه .

وفي الساعة الثالثة تقريبًا وصلنا إلى أكبر خان رأيته في حياتي. وهي عبارة عن مدينة كاملة، أو بالأحرى قرية محاطة بسور واحد، تحتوي على ثلاثة

أفنية ضخمة واحدة تلو الأخرى، حيث يركن الرجال والخبازون ومختلف التجار، وتحت الأروقة تقف الدواب في أكواخ صغيرة .

وهناك عدد قليل من الزنزانات النظيفة، المزودة بأسرّة وحصائر، محجوزة للمارة المميزين .

على حائط الشرفة، تحدق بنا حمامتان بيضاوان لامعتان باللون الفضي الأبيض بعيون حمراء تلمع كالياقوت .

شربت الخيول. انطلقنا مرة أخرى .

يقترب الطريق قليلاً من البحر، الذي يمكننا رؤية أثره المزرق في الأفق .

في نهاية الرأس، تظهر مدينة يبدو خطها المستقيم المبهر تحت أشعة الشمس الغاربة وكأنه يمتد عبر المياه. إنها الحمامات، التي كانت تسمى بوت بوت في عهد الرومان. من بعيد، أمامنا، على السهل، تقف أطلال مستديرة تبدو عملاقة من خلال تأثير السراب. إنها مقبرة رومانية أخرى، بارتفاع عشرة أمتار فقط، تعرف باسم كرس المنارة.

يأتي المساء. وقد ظلت السماء زرقاء فوق رؤوسنا، ولكن أمامنا سحابة أرجوانية معتمة، تغرق خلفها الشمس. في أسفل هذه الطبقة من السحب،

يمتد شريط وردي رفيع عبر الأفق والبحر، مستقيماً ومنتظماً، ويصبح أكثر إشراقاً وسطوعاً كلما انحدر النجم الخفي نحوه. تحلق طيور ثقيلة ببطء؛ أعتقد أنها صقور. إن إحساس المساء عميق، يخترق الروح والقلب والجسد بقوة نادرة، في هذا المستنقع البري الممتد على طول الطريق إلى القيروان، على مسيرة يومين أمامنا. يجب أن تكون هذه هي السهوب الروسية عند الغسق. التقينا ثلاثة رجال يرتدون الحروق. ظننتهم من بعيد زنوجاً من شدة سوادهم ولمعانهم، ولكنني تعرفت بعد ذلك على النوع العربي. إنهم من السوف، وهي واحة غريبة تكاد تكون مدفونة في الرمال بين الشط وتوغرت. سرعان ما حلّ الليل علينا. كانت الخيول تسير على الأقدام فقط. لكن فجأة يلوح في الظل جدار أبيض. إنه مفوضية النفيضة الشمالية، برج بوفيشة، وهو نوع من الحصن المربع، محمي بأسوار بلا فتحات وبوابة حديدية ضد المفاجآت العربية. إنهم في انتظارنا. وقد أعدت لنا زوجة المراقب، السيدة مورو عشاءً شهياً جداً. قطعنا ثمانين كيلومتراً، على الرغم من الجسور .

12 ديسمبر :

انطلقنا عند الفجر. فجر وردي اللون، وردي كثيف. كيف يمكنني التعبير عنه؟ سأقول سمك السلمون، لو كان أكثر إشراقاً .

نحن حقًا لا نملك الكلمات اللازمة للتعبير عن كل تركيبات الألوان التي تراها أعيننا. تستطيع أعيننا رؤية مجموعة لا نهائية من الفروق الدقيقة. فهي تميّز كل تركيبات الألوان، وكل التحولات التي تمر بها، وكل التعديلات التي تطرأ عليها تحت تأثير الضوء والظلال والوقت من النهار. ولا نملك لوصف هذه الآلاف من الألوان الدقيقة سوى بضع كلمات، وهي كلمات بسيطة استخدمها أجدادنا لوصف المشاعر النادرة التي كانت تنتاب عيونهم الساذجة .

لننظر إلى الأقمشة الجديدة. كم من نغمة لا يمكن التعبير عنها بين النغمات الرئيسية !

لاستحضارها، لا يمكننا أن نستخدم سوى المقارنات، وهي دائماً غير كافية. ما رأيته في ذلك الصباح، في غضون دقائق قليلة، لا أستطيع أن أنقله بالأفعال والأسماء والصفات. كنّا لا نزال نقترب من البحر، أو بالأحرى من

بركة شاسعة تنفتح على البحر. رأيت بمنظاري المعظّم طيور الفلامينغو في الماء، فتركت السيارة لأزحف نحوها بين الشجيرات وألقي نظرة عن قرب .

أتقدم إلى الأمام. أستطيع رؤيتها بشكل أفضل. بعضها يسبح، والبعض الآخر يقف على ركائزه الطويلة .

إنّها بقع بيضاء وحمراء تطفو، أو أزهار ضخمة تنمو على ساق أرجوانية صغيرة، أزهار متجمعة بالمئات، إما على الضفة أو في الماء. تبدو مثل أسرة من الزنابق القرمزية، برؤوس عصافير ملطخة بالدماء بارزة كما لو كانت من كورولا في نهاية عنق نحيل منحني.

أقترب مرة أخرى، وفجأة يراني أو يشمّني أقرب فرقة أو يشمّني ويهرب. في البداية تقلع إحداها ثم يغادرون جميعاً. إنه حقاً طيران مدهش في حديقة، حيث تنطلق كل السلال الواحدة تلو الأخرى في السماء؛ ولفترة طويلة أتابع من خلال منظاري السحب الوردية والبيضاء وهي تتجه إلى هناك، نحو البحر، تاركة وراءها كل تلك الساقين الدامية، الرقيقة كالأغصان المقطوعة .

كانت هذه البركة العظيمة ملجأً لأساطيل سكان أفروديسيوم، القراصنة المخيفين الذين كانوا يتربصون بنا ويلجؤون إلى هنا .

يمكنك أن ترى من بعيد أطلال هذه المدينة، حيث توقف بيليساريوس في زحفه على قرطاج .

لا يزال هناك قوس النصر، وبقايا معبد فينوس وحصن ضخم .

في منطقة النفيضة وحدها، يمكنك أن ترى بقايا سبع عشرة مدينة رومانية. وهناك، على الشاطئ، توجد هرقلة، التي كانت ذات يوم أوريا كيليا الفخمة لأنطونين، و إذا ما واصلنا في خط مستقيم بدلاً من الميل نحو القيروان، وفي مساء اليوم الثالث من مسيرتنا، سنرى مدرج الجم، وهو مدرج كبير بحجم الكولوسيوم في روما، قائم على سهل غير مزروع تماماً، وهو حطام هائل يسع ثمانين ألف متفرج .

وقد وجدنا حول هذا العملاق، الذي كاد أن يكون سليماً لو لم يفتحه حمودة باي تونس بنيران المدافع لإخراج العرب الذين رفضوا دفع الجزية، وجدنا من مكان إلى آخر آثار مدينة كبيرة فخمة وصهاريج واسعة وعاصمة كورنثية هائلة من أنقى ما يكون من الفن، كتلة واحدة من الرخام الأبيض .

ما هو تاريخ هذه المدينة، توسدريتا بليني، تيسدريتا بطليموس، التي نقل المؤرخون اسمها مرة أو مرتين؟ ما الذي ينقصها لتكون مشهورة، وقد كانت كبيرة جداً ومكتظة بالسكان وغنية جداً؟

لا شيء تقريباً، هوميروس !

لولاه ماذا كان يمكن أن تكون طروادة بدونه؟ من كان سيعرف إيثاكا؟

في هذه البلاد نتعلم من خلال عينيه ما هو التاريخ وقبل كل شيء ما هو الكتاب المقدس. نفهم أن البطاركة وجميع الشخصيات الأسطورية العظيمة جداً في الكتب، والمهيبة جداً في خيالنا، كانوا رجالاً فقراء يتجولون في الشعوب البدائية، كما يتجول هؤلاء العرب الجادين البسطاء، الذين لا يزالون ممتلئين بالروح القديمة ويرتدون الزي القديم. ولم يكن للبطاركة إلا الشعراء المؤرخون الذين كانوا يتغنون بحياتهم .

نصادف مرة واحدة على الأقل في كل يوم، عند سفح شجرة زيتون، في زاوية بستان صبار، صورة الرحلة إلى مصر؛ ونبتسم حين نفكر أن الرسامين الشجعان جعلوا مريم العذراء تجلس على الحمار الذي كان يركبه بلا شك يوسف زوجها بينما هي تتبعه بخطوات ثقيلة منحنية قليلاً حاملة على

ظهرها، في برنس رمادي مغبر، الجسد الصغير، المستدير كالكرة، للطفل يسوع الرضيع .

أكثر من نراها عند كل بئر هي ريبيكا. وهي ترتدي ثوباً صوفياً أزرق ملفوفاً بشكل رائع، وترتدي خواتم فضية في كاحليها، وعلى صدرها قلادة من صفائح من المعدن نفسه، مربوطة بسلسلة. وأحيانًا تخفي وجهها عن أعيننا وفي بعض الأحيان، أيضًا، عندما تكون جميلة، تظهر لنا وجهًا نضرًا أسمر اللون، تنظر إلينا بعينين سوداوين كبيرتين. إنها بالفعل ابنة الإنجيل، تلك التي يقول عنها نشيد الأناشيد: زنجية سوم سيد فورموزا، تلك التي، وهي تسند على جبينها منديل نبيذ على الطرقات الصخرية، وتظهر لحم ساقيها المتين المدبوغ، وتمشي بخطى متأنية، وتتمايل بخفة بخصرها الناعم على وركها، تغري ملائكة السماء، كما لا تزال تغرينا نحن الذين لسنا ملائكة .

في الجزائر والصحراء الجزائرية، كل النساء، نساء المدن ونساء القبائل، يلبسن البياض، في الجزائر والصحراء الجزائرية. أما في تونس، من ناحية أخرى، فإن نساء المدن يغطين من الرأس إلى أخمص القدمين بجلباب من الشاش الأسود الذي يجعلهن يظهرن بمظهر غريب في الشوارع الزاهية في

مدن الجنوب الصغيرة، أما نساء الريف فيرتدين أثواباً زرقاء كبيرة ذات تأثير رشيق وفخم، مما يضفي عليهن جاذبية أكثر من الكتاب المقدس.

نحن الآن نعبر سهلاً حيث يمكن رؤية آثار العمل البشري في كل مكان، ونحن نقترب من مركز النفيضة، التي سميت إنفيدافيل نسبة إلى دار الباي .

هناك أشجار! يا لها من مفاجأة! إنها طويلة بالفعل، على الرغم من أنه لم يمضِ على زراعتها سوى أربع سنوات فقط، وهي تشهد على الثراء المذهل لهذه الأرض والنتائج التي يمكن تحقيقها من خلال الزراعة المتأنية والجادة. ثم تظهر وسط هذه الأشجار مبانٍ عالية يرفرف فوقها العلم الفرنسي .

هذا هو منزل المدير العام وبيضة المدينة المستقبلية. وقد نشأت بالفعل قرية حول هذه الأبنية الهامة، ويقام هناك سوق كل يوم اثنين، حيث تتم بعض الأعمال التجارية الكبيرة جداً. يأتي العرب إلى هنا أفواجاً من كل حدب وصوب .

وليس هناك ما هو أكثر إثارة للاهتمام من دراسة تنظيم هذه الضيعة الهائلة، حيث تمت حماية مصالح السكان الأصليين بعناية لا تقل عن عناية الأوروبيين. إنها نموذج للحكم الزراعي في هذه البلاد المختلطة حيث

تستدعي العادات المتناقضة والمتنوعة أساساً مؤسسات دقيقة جداً وبعيدة النظر.

بعد تناول الغداء في عاصمة النفيضة هذه، انطلقنا لزيارة قرية غريبة جداً جاثمة على صخرة تبعد حوالي خمسة كيلومترات .

نمر أولاً عبر مزارع الكروم، ثم ندخل إلى المستنقعات، تلك الامتدادات الطويلة من الأرض الصفراء التي لا تتخللها سوى خصلات هزيلة من أشجار العناب أو السدر .

ويقع منسوب المياه الجوفية على عمق مترين أو ثلاثة أو خمسة أمتار تحت كل هذه السهول تقريباً، والتي يمكن أن تصبح بقليل من العمل حقولاً هائلة من أشجار الزيتون .

كل ما يمكن رؤيته هنا وهناك هو غابات صبار صغيرة بالكاد بحجم بساتيننا .

و إليك أصل هذه الغابات: في تونس عادة مثيرة للاهتمام جداً تعرف بحق إحياء التربة، وهي تسمح لأي عربي أن يستولي على أرض غير مزروعة ويخصبها إذا لم يكن صاحبها موجوداً ليعارضه. وهكذا كان العربي إذا وجد حقلاً يبدو خصباً يزرعه إما بأشجار الزيتون أو بالأحرى بالصبار الذي كان

يسميه خطأً التين الشوكي، وبهذا الفعل وحده يضمن لنفسه التمتع بنصف المحصول حتى تيبس الشجرة. أما النصف الآخر فيعود لصاحب الأرض، وما عليه بعد ذلك إلا أن يشرف على بيع المحصول ليحصل على نصيبه المعتاد .

ويجب على العربي الغازي أن يعتني بالحقل ويحافظ عليه ويدافع عنه ضد السرقة ويحميه من أي ضرر كما لو كان ملكًا له، وفي كل عام يبيع الثمار بالمزاد العلني لضمان حصة عادلة. وعلاوة على ذلك، يشتري الفاكهة بنفسه في أغلب الأحيان، ثم يدفع للمالك الحقيقي نوعًا من الإيجار غير المنتظم بما يتناسب مع قيمة كل محصول .

تبدو غابات الصبار هذه رائعة .

فجذوعها الملتوية تشبه أجسام التنانين، وأطرافها وحوش ذات حراشف بارزة ذات مسامير.

عندما تصادف واحدة منها في ضوء القمر في المساء، تشعر حقاً وكأنك دخلت أرض الكوابيس .

تكسو هذه النباتات الشيطانية الطويلة سفح الصخرة شديدة الانحدار التي تحمل قرية تكرونة. أنت تسير في غابة دانتي. تظن أنها ستتحرك وتهز

أوراقها العريضة المستديرة العريضة السميكة والمغطاة بالإبر الطويلة، وأنها ستختطفك وتحتضنك وتمزقك بمخالبها المخيفة. لا أستطيع أن أفكر في شيء أكثر إثارة للحيرة من فوضى الحجارة الضخمة والصبار التي تحرس سفح هذا الجبل .

والآن، في وسط هذه الصخور والنباتات الشرسة المظهر، نكتشف بئراً تحيط به النساء القادمات لجلب الماء. تلمع الحلي الفضية على أرجلهن وأعناقهن تحت أشعة الشمس. عندما يلمحننا، يخفين وجوههن السمراء تحت طية من القماش الأزرق الذي يلفهنّ، ويرفعن إحدى ذراعيهن إلى جباههنّ ويدعونا نمرّ محاولين رؤيتنا .

الطريق شديد الانحدار، وبالكاد يصلح للبغال. وقد تسلق الصبار أيضاً الطريق، إلى الصخور. يبدو أنها ترافقنا، تحيط بنا، تتبعنا وتسبقنا. هناك في الأعلى، في أعلى الصخرة، لا تزال قبة الكوبة المبهرة ظاهرة للعيان.

هذه هي القرية: كومة من الأطلال والجدران المتهدمة، حيث يصعب عليك معرفة أي الحفر مأهولة بالسكان وأيها لم يعد مستخدماً. أما أجزاء السور التي لا تزال قائمة في الشمال والغرب فهي ملغومة ومهددة لدرجة أننا لا نجرؤ على المغامرة بالدخول إلى وسطها: فهزة واحدة قد تطيح بها .

المنظر من الأعلى هناك رائع. إلى الجنوب والشرق والغرب، السهل اللامتناهي الذي يغمره البحر على امتداد طويل. وإلى الشمال، جبال مسطحة حمراء ومتعرجة مثل قمة الديك. من بعيد، جبل زغوان الذي يهيمن على المنطقة بأكملها .

هذه هي آخر الجبال التي سنراها حتى القيروان .

قرية تكرونة الصغيرة هي نوع من المنصة العربية الآمنة تمامًا من الهجوم. بالمناسبة، تاك هي تصغير لـتاكش، والتي تعني الحصن. ومن الواجبات الرئيسية للسكان - وهنا لا يمكن أن نقول "المهن" - تخزين الحبوب التي يعهد بها البدو الرحل إليهم بعد الحصاد في صوامعهم .

في المساء، نعود إلى النفيضة لقضاء الليل.

13 ديسمبر :

في البداية نمر في كروم الجمعية الفرنسية الأفريقية، ثم نصل إلى سهول شاسعة حيث تجول في الأفق تلك المظاهر التي لا تنسى من جمل ومحراث وأعرابي. ثم تصير الأرض قاحلة جرداء، وأمامنا أستطيع أن أرى من خلال

المنظار صحراء عظيمة من الحجارة الهائلة، منتصبة في كل اتجاه، عن اليمين وعن الشمال، على مد البصر. وكلما اقتربنا أكثر، تعرفنا عليها. إنها مقبرة ذات أبعاد لا يمكن تخيلها، تمتد على مساحة أربعين هكتاراً !

يتكون كل قبر منها من أربعة أحجار مسطحة. ثلاثة منها منتصبة تشكل القاعدة والجانبين، بينما تُستخدم حجارة أخرى موضوعة في الأعلى كسقف .

منذ فترة طويلة، كانت جميع الحفريات التي قام بها مدير النفيضة للكشف عن الأقبية الموجودة تحت هذه الآثار الصخرية الضخمة دون جدوى. ومنذ ثمانية عشر شهراً أو عامين تمكن السيد هامي أمين متحف الإثنوغرافيا في باريس، بعد بحث طويل، من اكتشاف مدخل هذه القبور تحت الأرض مخبأة بمهارة فائقة تحت طبقة من الصخور السميكة. وقد عثر في الداخل على بعض العظام والأواني الفخارية التي تكشف عن مدافن البربر. ومن ناحية أخرى، أشار السيد مانجيافاكشي، مدير النفيضة، إلى آثار مدينة بربرية شاسعة تكاد تكون قد اختفت، غير بعيد من هناك. ماذا يمكن أن تكون هذه المدينة التي تغطي مساحتها أربعين هكتاراً؟ وعلاوة على ذلك، يذهلنا باستمرار بين الشرقيين المكانة التي تُمنح للأجداد في هذا العالم. المقابر

هائلة ولا تعد ولا تحصى. إنها في كل مكان. في القاهرة، تشغل المقابر مساحة أكبر من المنازل. أما هنا، من ناحية أخرى، فالأرض غالية الثمن والموتى لم يعد لهم عدد .

إنهم مكدسون، واحد فوق الآخر، واحد داخل الآخر، في زاوية صغيرة، خارج المدينة، في الضواحي، بين أربعة جدران .

ألواح رخامية وصلبان خشبية تغطي أجيالاً دفنت هناك لقرون .

إنها مدافن الموتى عند بوابة المدن. يُمهلون وقتًا كافيًا فقط ليفقدوا شكلهم في الأرض التي سمنها التحلل البشري بالفعل، وقتًا كافيًا فقط ليختلط لحمهم المتحلل بهذا الطين المتحلل؛ ثم، مع وصول المزيد منهم طوال الوقت، وزراعة النباتات في الحقول المجاورة للأحياء، يتم حفر هذه التربة الآكلة للبشر بالمعاول، ويتم تمزيق العظام الموجودة - الرؤوس والأذرع والأرجل والأضلاع - للذكور والإناث والأطفال، ويتم نسيانها وخلطها معًا، تُرمى مبعثرة في خندق، ويُلقى بها مختلطًا بعضها ببعض، ويُقدم الموتى الجدد، الموتى الذين لا تزال أسماؤهم معروفة، إلى المكان المسروق من الآخرين الذين لم يعد أحد يعرفهم، والذين استولى عليهم العدم بكاملهم؛ لأن المرء يجب أن يكون مقتصدًا في المجتمعات المتحضرة.

عند مغادرتنا لهذه المقبرة الضخمة القديمة، نرى بيتاً أبيض. هذا هو المنزل، المركز الإداري الجنوبي لمدينة النفيضة حيث تنتهي مرحلتنا .

بما أننا تحدثنا لفترة طويلة بعد العشاء، قررنا الخروج لبضع دقائق قبل الذهاب إلى الفراش. كان ضوء القمر الرائع يضيء السهوب بشكل رائع، وهو يتسلل بين قشور الصبار الهائل الذي ينمو أمامنا على بعد بضعة يأمتار، ويعطيها مظهراً خارقاً لقطيع من الوحوش الجهنمية التي تندفع فجأة وتلقي بالصفائح المستديرة لأجسامها البشعة في الهواء في كل الاتجاهات .

وبينما كنا نتوقف لننظر إليهم، أدهشنا ضجيج بعيد ومتواصل وقوي. كانت هناك أصوات لا تحصى، عالية ومنخفضة، من كل جرس يمكن تصوره، صفير وصراخ ونداءات واستغاثات، وأصوات مجهولة ومرعبة لحشد مذعور مرعب، حشد لا يوصف، حشد غير حقيقي، لا بد أنه يتقاتل في مكان ما، لم نكن نعرف أين، في السماء أو على الأرض. وإذ كنا نصغي إلى كل نقطة في الأفق، اكتشفنا في النهاية أن هذا الصخب قادم من الجنوب. ثم نادى أحدهم:

-وإنما هي طيور بحيرة تريتون في اليوم التالي كنا على بعد كيلومتراً من هذه البحيرة التي يسميها العرب (الكلبية) وتبلغ مساحتها من عشرة إلى

ثلاثة عشر ألف هكتار، والتي يعتبرها بعض الجغرافيين المحدثين بحر إفريقية الداخلي القديم.

والواقع أن نقيق الطيور المائية التي تعسكر كجيش من قبائل مختلفة على شواطئ البحيرة على بعد ستة عشر كيلومتراً هي التي كانت تحدث هذا الضجيج العظيم المرتبك في الليل، لأن هناك الآلاف منها، من كل جنس وشكل وريش، من البطة المسطحة الأنف إلى اللقلق الطويل المنقار. هناك جيوش من طيور النحام والرافعات، وأساطيل من طيور السكوتر والنوارس، وأفواج من طيور الغراب والزقزاق والشنقب...

وتحت ضوء القمر الناعم، تتحرك كل هذه الحيوانات التي أضاء لها الليل الجميل، بعيداً عن الإنسان الذي لا مأوى له بالقرب من مملكتها السائلة العظيمة، وتصرخ وتصرخ ولا شك أنها تثرثر بلغة طيورها وتملأ السماء المضيئة بأصواتها الثاقبة، ولا يجيبها إلا نباح الكلاب البعيدة .

14 ديسمبر:

وبعد أن عبرنا بضعة سهول أخرى مزروعة هنا وهناك من قبل السكان الأصليين، ولكنها في الغالب غير مزروعة تماماً، و إن كانت خصبة جداً، اكتشفنا على اليسار صفيحة طويلة من الماء لبحيرة تريتون. وكلما اقتربنا منها تدريجياً ظننا أننا رأينا جزراً، جزراً كثيرة وكبيرة، بيضاء أحياناً وسوداء أحياناً أخرى. تسبح الطيور وتطفو في كتل متراصة. وعلى الشواطئ، رافعات ضخمة تمشي اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة على أرجلها العالية. ويمكن رؤية البعض الآخر على السهل، بين كتل الأحراش التي تهيمن عليها رؤوسها القلقة. وقد جفت هذه البحيرة التي يبلغ عمقها ستة أو ثمانية أمتار جفافاً تاماً هذا الصيف، بعد الجفاف الذي عانت منه تونس خمسة عشر شهراً لم تشهد له تونس مثيلاً في ذاكرتها الحية .

ومع ذلك، وعلى الرغم من حجمها الكبير، إلا أنها امتلأت في يوم واحد في الخريف، لأن المياه تتدفق في هذه البحيرة حيث تتجمع كل الأمطار التي تسقط على الجبال الوسطى. وتكمن الثروة المستقبلية العظيمة لهذا الريف في أنه بدلًا من أن تعبره أنهار غالبًا ما تكون فارغة ولكن لها مجرى دقيق، وتجر مياه السماء كما هو الحال في الجزائر، فإنها بالكاد تعبرها وديان يكفي

أقل سد فيها لإيقاف السيول. ولما كان منسوب المياه واحدًا في كل مكان، فإن كل غيث يسقط على الجبال البعيدة ينتشر على السهل كله، فيحوله إلى مستنقع هائل لعدة أيام أو ساعات في كل مرة، ويرسب طبقة جديدة من الطمي في كل مرة يفيض فيها فيجعله أكثر سمنة وخصبًا، وكأنه مصر بلا نيل.

لقد وصلنا الآن إلى المستنقعات التي لا حدود لها، حيث ينتشر الجذام المتقطع، وهو نبات صغير أخضر مائل إلى الرمادي دهني اللون مولع به الإبل. يمكن رؤية قطعان هائلة من الإبل ترعى على مد البصر. وعندما نمر بينها، تنظر إلينا بعيونها الكبيرة اللامعة، فنشعر وكأننا في الأيام الأولى للعالم، في الأيام التي ألقى فيها الخالق المتردد حفنة على الأرض، وكأنه يحكم على قيمة وتأثير عمله المشكوك فيه، الأجناس التي لا شكل لها والتي قضى عليها تدريجياً منذ ذلك الحين، بينما ترك بعض الأنواع البدائية لتبقى على قيد الحياة في هذه القارة العظيمة المهملة، أفريقيا، حيث نسي في الرمال الزرافة والنعامة والجمل العربي.

آه، ما أظرفه وألطفه: ناقة ولدت لتوها وانطلقت نحو المخيم، يتبعها جملها الذي يدفعه أعرابيان صغيران يحملان أغصاناً لا يصل وجههما إلى ظهر

الناقة الصغيرة. وهو الآن طويل القامة، يقف على قوائم عالية جداً ويحمل جسداً لا شيء على الإطلاق، برقبة طائر ورأس مدهوش لم يمض على نظره إلى هذه الأشياء الجديدة سوى ربع ساعة: النهار والبطحاء والحيوان الذي يتبعه. ومع ذلك فهو يمشي على هذه الأرض الوعرة دون حرج أو تردد، ويبدأ في شم رائحة الحلمة لأن الطبيعة لم تجعله عالياً هكذا إلا ليتمكن من الوصول إلى بطن أمه الحاد.

هناك أخرى عمرها بضعة أيام فقط، وأخرى لا يزال عمرها بضعة أشهر، ثم هناك أخرى كبيرة جداً، بشعر يشبه الفرك، وأخرى صفراء بالكامل، وأخرى بيضاء مائلة للرمادي، وأخرى سوداء. أصبح المشهد غريباً جداً لدرجة أنني لم أرَ مثله من قبل. عن اليمين واليسار صفوف من الحجارة ترتفع من الأرض مصطفة كالجنود، كلها في نفس الترتيب، في نفس الاتجاه، تميل نحو القيروان، لا تزال غير مرئية .

يبدو أنهم يسيرون في كتائب، واحدة وراء الأخرى، في خطوط مستقيمة، على بعد بضع مئات من الخطوات. يقطعون عدة كيلومترات. لا شيء بينهما سوى الرمال الطينية. هذا المرتفع هو أحد أكثر المرتفعات غرابة في العالم. وله أسطورته الخاصة .

عندما وصل سيدي عقبة وفرسانه إلى الصحراء المشؤومة حيث يوجد الآن ما تبقى من المدينة المقدسة، خيم في هذه العزلة. وفوجئ أصحابه بتوقفه هناك، فنصحوه بالابتعاد، لكنه أجابهم - يجب أن نبقى هنا بل ونبني مدينة لأن هذه هي مشيئة الله .

فاعترضوا بأنه لا يوجد ماء للشرب ولا خشب ولا حجارة للبناء بها .

فرض عليهم سيدي عقبة الصمت بهذه الكلمات: "الله سيرزقنا ."

وفي اليوم التالي، قيل له إن كلبًا وجد ماءً. فحفروا هناك، وعلى عمق ستة عشر متراً تحت الأرض اكتشفوا النبع الذي يغذي البئر الكبيرة التي تعلوها قبة يدير فيها جمل مقبض الرفع طوال اليوم .

وفي اليوم التالي مرة أخرى، أخبر الأعراب الذين أرسلوا لاستكشاف المنطقة سيدي عقبة أنهم شاهدوا غابات على سفوح الجبال القريبة .

وأخيراً في اليوم التالي عاد فرسان كانوا قد انطلقوا في الصباح راكضين وهم يصيحون أنهم صادفوا للتو حجارة، جيشاً من الحجارة في المسير، لا شك أن الله أرسله وعلى الرغم من هذه المعجزة، فقد بُنيت القيروان بالكامل تقريبًا من الطوب .

أما الآن فقد أصبح السهل مستنقعًا من الطين الأصفر حيث تنزلق الخيول وتجر دون أن تتقدم، فتنهك نفسها وتسقط. تغوص حتى الركب في الوحل اللزج. العجلات غارقة فيه حتى محورها. السماء ملبدة بالغيوم، والمطر يتساقط، مطر خفيف يغطي الأفق. أحياناً يبدو الطريق أفضل وأنت تتسلق أحد التموجات السبعة المعروفة باسم تلال القيروان السبعة، وأحياناً يتحول الطريق إلى بالوعة مخيفة وأنت تنحدر إلى ما بين التلال. وفجأة تتوقف السيارة، حيث تنحشر إحدى العجلات الخلفية في الرمال.

كان علينا أن نضع أقدامنا ونستخدم أرجلنا. فها نحن أولاء، تحت المطر، تلفحنا ريح عاتية، وكل خطوة نخطوها ترفع حزمة ضخمة من الطين تبتلع أحذيتنا، وتثقل مشيتنا إلى حد الإعياء، ونغرق أحياناً في حفر الوحل، ونلهث من شدة الحر، ونلعن الجنوب المتجمد، ونحج إلى المدينة المقدسة لعلنا نكسب بعض الغفران بعد هذا العالم، إن كان الله ورسوله هو الصادق المصدوق .

ونحن نعلم أن سبع حجات إلى القيروان تعدل حجة واحدة إلى مكة المكرمة، وهي بالنسبة للمؤمنين تعدل سبع حجج .

بعد كيلومتر أو كيلومترين من هذا السير المرهق، ألمح في الضباب، أمامي بعيداً، برجاً رفيعاً مدبباً، لا يكاد يُرى، لا يكاد يتبينه أحد، ولا يكاد يتلون إلا بالضباب، وقمته ضائعة في السحاب. إنه ظهور غامض وملفت للنظر، ثم يزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً، ويأخذ شكلاً أكثر وضوحاً ويصبح مئذنة عظيمة واقفة في السماء لا شيء آخر في الأفق، لا شيء حولها، لا شيء تحتها: لا المدينة ولا الأسوار ولا قباب المساجد. يلفح المطر وجوهنا، ونمشي ببطء نحو هذه المنارة الرمادية التي تقف أمامنا كبرج شبح سرعان ما يتلاشى في الضباب الذي خرج منه للتو.

ثم يتلاشى إلى اليمين نصب تذكاري محمل بالقباب: إنه المسجد المعروف باسم البربير، وأخيراً تظهر المدينة كتلة غير واضحة المعالم، خلف ستار المطر؛ وتبدو المئذنة أقل ارتفاعاً من ذي قبل، كأنها غاصت للتو في الجدران بعد أن ارتفعت إلى السماء لتوجهنا نحو المدينة .

يا لها من مدينة حزينة ضائعة في هذه الصحراء، في هذه العزلة القاحلة الموحشة! في هذه الشوارع الضيقة المتعرجة يرقبنا الأعراب المحتمون في مغارف الباعة ونحن نمر؛ وحين نلتقي بامرأة يبدو لنا هذا الشبح الأسود بين هذه الجدران التي اصفرت من هطول المطر كالموت الذي يتجول في الطريق .

وأكرم ضيافتنا والي القيروان التونسي سي محمد المرابط، وهو من أهل القيروان، وهو من أهل النبل والورع والتقوى وقد سبق له أن حج إلى مكة ثلاث مرات.

ويقودنا، بلهفة وأدب جاد، إلى الغرف المخصصة للأجانب، حيث نجد هناك ديواناً كبيراً وأغطية عربية رائعة نتدحرج فيها لننام. و إكراماً لنا، أحضر لنا أحد أبنائه بيديه كل ما نحتاج إليه من غرضاً .

وفي مساء اليوم نفسه تناولنا العشاء في منزل المراقب المدني والقنصل الفرنسي، حيث وجدنا ترحيباً ساحراً ومبهجاً أثلج صدورنا وعزّانا عن وصولنا الحزين .

15 ديسمبر :

كان الوقت لا يزال مبكراً في الصباح الباكر عندما أيقظني أحد رفاقي. كنا قد خططنا لأخذ حمام عربي في الصباح الباكر قبل زيارة المدينة .

كنا بالفعل نسير في الشوارع، حيث يستيقظ الشرقيون قبل شروق الشمس، وبين البيوت يمكننا أن نرى سماء جميلة نظيفة شاحبة مفعمة بالدفء والضوء .

ونتبع الأزقة والمزيد من الأزقة، ونمر بالبئر حيث الجمل المسجون في القبة يدور بلا نهاية ليأتي بالماء، وندخل بيتاً مظلماً سميك الجدران، لا نرى فيه في البداية شيئاً، ويخنقنا جوه الرطب الحار قليلاً بمجرد دخولنا .

ثم ترى بعض الأعراب غارقين في النوم على الحصير ؛ وبعد أن يخلع عنا صاحب المكان ثيابنا يأخذنا إلى غرف البخار، وهي نوع من الزنزانة السوداء المقببة حيث يسقط الضوء من أعلاها من نافذة ضيقة، والأرض مغطاة بماء لزج لا تستطيع أن تمشي فيها دون أن تخاطر بالانزلاق والسقوط في كل خطوة.

والآن، بعد كل عمليات التدليك، عندما نعود إلى الهواء الطلق، نشعر بسعادة غامرة، لأن الشمس المشرقة تضيء لنا الشوارع وترينا القيروان، المدينة المقدسة، بيضاء مثل كل المدن العربية، ولكنها أكثر وحشية، وأكثر قسوة، وأكثر تميزاً بالعصبية، وتلفت النظر في فقرها الظاهر، وفي بؤسها البائس المتغطرس .

لقد مرّ سكانها للتو بمجاعة رهيبة، ويمكنك أن ترى في كل مكان هواء المجاعة الذي يبدو أنه انتشر في البيوت نفسها. وكما هو الحال في مدن وسط إفريقيا، تباع كل أنواع الأشياء المتواضعة في دكاكين كبيرة كالصناديق، حيث ينحني التجار على الطريقة التركية.

هنا تمور من قفصة أو سوف، متكتلة في علبة كبيرة من العجينة اللزجة التي يفك البائع الجالس على نفس اللوح منها بأصابعه الأجزاء بأصابعه. وهناك الخضراوات والفلفل الحار والمعكرونة، وفي الأسواق الطويلة المتعرجة والمقببة الأقمشة والسجاد والسرج المزينة بتطريزات الذهب والفضة، وعدد لا يتصوره العقل من صانعي الأحذية الذين يصنعون أحذية من الجلد الأصفر. قبل الاحتلال الفرنسي، لم يكن اليهود قادرين على الاستقرار في هذه المدينة المنيعة. أما الآن فهم يتدفقون عليها ويكتسحونها. وهم يملكون بالفعل حلي النساء وسندات ملكية بعض البيوت التي أقرضوها أموالاً، والتي أصبحوا مالكين لها بسرعة نتيجة لنظام تجديد الديون ومضاعفتها الذي يمارسونه بمهارة وجشع لا يكلان. نتجه نحو مسجد الجامع الكبير أو مسجد سيدي عقبة الذي تهيمن مئذنته العالية على البلدة والصحراء التي تعزلها عن العالم. فجأة، عند منعطف الطريق، يظهر المسجد.

إنه بناء ضخم وثقيل تدعمه دعامات هائلة، كتلة بيضاء، ثقيلة، مهيبة، جميلة بجمال وحشي لا يمكن تفسيره. أول ما تراه عند دخولك هو فناء رائع محاط بدير مزدوج مدعوم بخطين أنيقين من الأعمدة الرومانية الجميلة المتناسقة. وكأنك داخل دير إيطالي جميل .

ويقع المسجد نفسه على اليمين، وينفتح على هذا الفناء من خلال سبعة عشر باباً مزدوجاً فتحناها على مصراعيها قبل الدخول. لا أعرف سوى ثلاثة مبانٍ دينية في العالم منحتني إثارة غير متوقعة وسريعة خاطفة كهذه الآثار البربرية المدهشة: مون سان ميشيل، وسان مارك في البندقية، وكنيسة بالاتين في باليرمو.

هذه هي الأعمال المدروسة والمثيرة للإعجاب لمهندسين معماريين عظام، متأكدين من آثارهم، متدينين بلا شك، ولكنهم فنانون قبل كل شيء، يستلهمون حب الخطوط والأشكال والجمال الزخرفي بقدر أو أكثر من حب الله. هنا شيء آخر. شعب هائم متعصب، متجول، لا يكاد يقدر على بناء الجدران، جاء إلى أرض مغطاة بالأطلال التي تركها من أسلافهم، والتقطوا ما وجدوه أجمل، وبدورهم، مع هذا الحطام من نفس الطراز والنظام، مدفوعين

بإلهام سامٍ، بنوا مسكنًا لإلههم، مسكنًا مصنوعًا من قطع ممزقة من مدن متهدمة، ولكنه مثالي ورائع مثل أنقى تصاميم أعظم البنائين.

يظهر أمامنا معبد هائل، يبدو وكأنه غابة مقدسة، لأن مائة وثمانين عموداً من العقيق اليماني والرخام السماقي تدعم أقبية سبعة عشر بلاطة تقابل سبعة عشر باباً .

ويستوقف المرء نظره ويضيع في هذا التشابك العميق من الأعمدة المستديرة النحيلة ذات الأناقة التي لا تشوبها شائبة، والتي تمتزج فيها كل الفروق الدقيقة وتتناسق وتيجانها البيزنطية من المدرستين الأفريقية والشرقية ذات الصنعة النادرة والتنوع اللامتناهي. وقد وجدت بعضها في غاية الجمال. ولعل أكثرها أصالة يصور نخلة تلويها الرياح .

وبينما كنت أشق طريقي في هذا المسكن الإلهي، بدت لي جميع الأعمدة وكأنها تتحرك وتلتف حولي وتشكل أشكالاً متنوعة متغيرة الانتظام.

في كاتدرائياتنا القوطية، يتحقق التأثير العظيم من خلال عدم التناسب المتعمد بين الارتفاع والعرض. أما هنا، على العكس من ذلك، فإن التناغم الفريد لهذا المعبد المنخفض يأتي من تناسب وعدد هذه الأعمدة الضوئية

التي تحمل المبنى وتملأه وتضفي عليه ما هو عليه وتخلق روعته وعظمته. إن كثرتها الملونة تعطي للعين انطباعاً بأن لا حدود لها، في حين أن اتساع المبنى المنخفض يعطي النفس شعوراً بالثقل. إنه شاسع كالعالم، وأنت مسحوق تحت قوة الإله .

الإله الذي ألهم هذا العمل الفني الرائع هو في الواقع الإله الذي أملى القرآن، وليس إله الأناجيل. إن أخلاقه العبقرية أكثر اتساعاً مما هي سامية تدهشنا بانتشارها بدلاً من أن تدهشنا بارتفاعها .

هناك تفاصيل رائعة في كل مكان .

فغرفة السلطان، التي تم الدخول إليها من باب، مصنوعة من جدار خشبي مشغول كما لو كان من إزميل. ويعطي المنبر أيضاً بألواحه المنحوتة بشكل غريب تأثيراً مبهجاً جداً، والمحراب الذي يشير إلى مكة محراب رائع من الرخام المنحوت والمطلي والمذهب، مزخرف بشكل رائع.

وبجانب هذا المحراب، يوجد عمودان متجاوران بالكاد يتركان مجالاً بينهما لانزلاق جسم الإنسان. ووفقاً للبعض، فإن العرب الذين يمرون من هنا

يشفون من الروماتيزم؛ ووفقاً للبعض الآخر، فإنهم يمنحون بعض الحسنات المثالية .

ومقابل الباب الأوسط للمسجد، وهو التاسع، على اليمين واليسار معاً، تقف المئذنة على الجانب الآخر من الصحن. ولها مائة وتسع وعشرون درجة. نصعدها .

من هناك، تبدو القيروان عند أقدامنا مثل رقعة من المصاطب الجصية، تنبثق منها القباب الكبيرة المبهرة للمساجد والقباب من كل جانب. كل ما حولنا، على امتداد البصر، صحراء صفراء لا نهاية لها، مع ظهور بقع خضراء من حقول الصبار هنا وهناك، على مقربة من الجدران. هذا الأفق فارغ وحزين إلى ما لا نهاية وأكثر حزناً من الصحراء نفسها.

ويبدو أن القيروان كانت أكبر من ذلك بكثير. لا تزال أسماء الأحياء التي اختفت تُذكر .

وهي ذراع التمار، تل تجار التمور؛ وذراع الويبة، تل تجار الحنطة؛ وذراع القراوة، تل تجار التوابل؛ وذراع القطرانية، تل تجار القطران؛ ودرب المسمار، حي تجار المسامير .

خارج البلدة، على بعد كيلومتر واحد فقط، تلفت الأنظار من بعيد الزاوية، أو بالأحرى مسجد سيدي الصاحب (حلاق النبي)، الذي يلفت الانتباه، فننطلق نحوه .

وهذا المسجد يختلف تماماً عن الجامع الكبير الذي غادرناه للتو، فهو ليس مهيباً بأي حال من الأحوال، ولكنه أكثر المساجد التي رأيتها جمالاً وأكثرها ألواناً وسحراً، وأكمل مثال للفن الزخرفي العربي الذي رأيته في حياتي. يؤدي الدرج ذو التصميم المبهج المصنوع من الأواني الفخارية العتيقة إلى قاعة مدخل صغيرة مرصوفة ومزخرفة بنفس الطريقة .

ويتبع ذلك فناء طويل وضيق محاط بدير ذي أقواس على شكل حدوة حصان ترتكز على أعمدة رومانية. عندما تدخل في يوم مشرق، ستبهرك الشمس المنسدلة في غطاء ذهبي على جميع الجدران المغطاة أيضاً ببلاط خزفي بألوان رائعة وتنوع لا نهائي. كما أن الفناء المربع الكبير الذي ستصل إليه بعد ذلك متغير اللون بالكامل. يتلألأ الضوء ويتدفق ويتلألأ بالنار في هذا القصر الطلاء الزجاجي الهائل حيث تضيء كل تصاميم وألوان الخزف الشرقي بلهيب السماء الصحراوية. وفوقها تتجول خيالات الأرابيسك الرقيقة التي لا يمكن وصفها. في هذا الفناء المسحور يفتح الباب إلى الحرم

الذي يحتوي على قبر سيدي الصحابي، رفيق النبي وحلاقه الذي كان يحتفظ بصدره بثلاث شعرات من لحيته حتى وفاته.

وقد أدهشني هذا الحرم المزخرف بتصاميم منتظمة من الرخام الأبيض والأسود، وقد كتبت حوله نقوش، وهو مليء بالسجاد السميك والأعلام، وهو أقل جمالاً وأقل توقعاً من الفناءين اللذين لا ينسى منظرهما و اللذان يتم الوصول إليه من خلالهما .

في طريق الخروج، نمر عبر فناء ثالث مليء بالشباب. إنه نوع من المدرسة الدينية الإسلامية، مدرسة للمتعصبين .

كل هذه الزوايا التي تغطي تربة الإسلام، إذا جاز التعبير، هي بيضات لا حصر لها من الطرق والطوائف التي تتوزع بينها العبادات الخاصة بالمؤمنين .

وأهمها في القيروان (ولا أتحدث هنا عن الزوايا التي هي لله وحده) هي : زاوية سيدي محمد العلواني، وزاوية سيدي عبد القادر الجيلاني، أعظم أولياء الإسلام وأكثرهم تبجيلا وتقديسا، وزاوية سيدي التيجاني وزاوية سيدي حديد الخنجراني، وزاوية سيدي محمد بن عيسى من مكناس، التي تحتوي على

الدفوف والدربوكات والسيوف والنقاط الحديدية وغيرها من الآلات الضرورية للاحتفالات البرية العيساوية.

وهذه الطرق والأخويات التي لا حصر لها في الإسلام، والتي تشبه من نواح كثيرة طرقنا الكاثوليكية، والتي ترتبط بالنبي بسلسلة من العلماء الأتقياء الذين يسميهم العرب "السلسلة"، قد أخذت منذ بداية القرن الحالي على وجه الخصوص، في التوسع بشكل كبير وهي من أقوى حصون الدين المحمدي ضد الحضارة والهيمنة الأوربية .

وقد قام الرائد "رين" تحت عنوان "المرابطون والخوان" بحصرهم وتحليلهم بأكبر قدر ممكن من الشمول .

ويحتوي هذا الكتاب على بعض النصوص الأكثر غرابة عن عقائد وممارسات هذه الاتحادات.

وكل واحدة منها تدعي أنها حافظت على الطاعة السليمة لوصايا الرسول الخمس، وأنها تحمل عنه الطريق الوحيد لتحقيق الاتحاد بالله الذي هو غاية كل جهود المسلمين الدينية .

وعلى الرغم من هذا الادعاء بالأرثوذكسية المطلقة ونقاء العقيدة، فإن جميع هذه الطرق والإخوة لها ممارسات وتعاليم وميول متباينة للغاية .

-فبعضها يشكل جمعيات تقية قوية، يقودها علماء دين متعلمون متقشفون، ورجال متفوقون حقًا، متعلمون نظريًا بقدر ما هم دبلوماسيون بارعون في علاقاتهم معنا، ويحكمون بمهارة نادرة هذه المدارس في العلم المقدس والأخلاق العالية ومكافحة الأوربيين. أما الآخرون، الذين يشكلون تجمعات غريبة من المتعصبين أو المشعوذين، فيبدون كفرق من الفنانين المتدينين الذين يتسمون أحياناً بالتمجيد والإقناع، وأحياناً أخرى بهلوانيين محضين يستغلون غباء الناس و إيمانهم.

وكما قلت، فإن الهدف الوحيد لجهود كل مسلم صالح هو الاتحاد الحميم مع الله .

وهناك عمليات باطنية مختلفة تؤدي إلى هذه الحالة الكاملة، ولكل اتحاد طريقته التدريبية الخاصة به. وبصفة عامة، تؤدي هذه الطريقة بالمريد البسيط إلى حالة من الذهول المطلق، مما يجعله أداة عمياء مطيعة في يد القائد .

ويترأس كل طريقة شيخ، وهو سيد الطريقة: "تكون بين يدي شيخك كالجثة بين يدي غاسل الموتى. أطيعوه في كل ما يأمر به، لأن الله نفسه هو الذي يأمر بصوته. وعصيانه يوجب غضب الله" .

لا تنسَ أنك عبدٌ له ولا تفعل شيئاً دون أمره .

"الشيخ هو حبيب الله؛ فهو أسمى من جميع المخلوقات الأخرى ومرتبته بعد الأنبياء. لا ترى إلا هو، هو في كل مكان. اطرد من قلبك أي فكر غير فكر الله أو الشيخ ."

وتحت هذه الشخصية المقدسة يوجد المقدمون، وهم نواب الشيخ ودعاة المذهب .

وأخيراً، يُطلق على البسطاء من المبتدئين في الطريقة اسم "الخوان"، أي الإخوة .

ولكي يصلوا إلى حالة الهلوسة التي يندمج فيها الإنسان مع الله، يكون لكل أخوية صلاتها الخاصة، أو بالأحرى رياضتها الخاصة في الذهول. وهذا ما يسمى بالذكر.

وهو في الغالب عبارة عن تضرع قصير جدًا، أو بالأحرى نطق كلمة أو عبارة يجب أن تتكرر لعدد لا نهائي من المرات .

يلفظ الأتباع، بحركات منتظمة للرأس والعنق، مائتي أو خمسمائة أو ألف مرة على التوالي، إما كلمة الله، أو الصيغة التي تتكرر في كل الصلوات: "لا إله إلا الله"، مع إضافة بعض الآيات التي يكون ترتيبها علامة الاعتراف بالأخوة .

يسمى المبتدئ في وقت التلقين "تلميذا"، ثم بعد التلقين يصبح مريدًا، ثم فقيرًا، ثم صوفيًا، ثم صوفيًا، ثم ساتكًا، ثم مجذوبًا (المريد، المهلوس). عند هذه النقطة يبدأ الإلهام أو الجنون، حيث تنفصل الروح عن المادة وتطيع اندفاع نوع من الهستيريا الصوفية. منذ ذلك الحين، لم يعد الإنسان ينتمي إلى الحياة المادية. فالحياة الروحية وحدها موجودة بالنسبة له، ولا يعود بحاجة إلى مراعاة ممارسات العبادة .

وفوق هذه الحالة، لا يوجد سوى حالة التوحيد، التي هي النعيم الأسمى، التماهي مع الله .

وللنشوة أيضاً درجاتها التي يصفها بشكل غريب الشيخ السنوسي، وهو عضو في الطريقة الخلواتية من مفسري الأحلام، وهي طريقة من طرق الرؤى. لاحظ التشابه الغريب الذي يمكن استخلاصه بين هؤلاء المتصوفة والمتصوفة المسيحيين .

إليكم ما كتبه الشيخ-السنوسي: "... ثم يتمتع المريد بعد ذلك بتجلي أنوار أخرى هي بالنسبة له أكمل الطلاسم .

"وعدد هذه الأنوار سبعون ألف نور؛ وهي تنقسم إلى عدة سلاسل، وتؤلف الدرجات السبع التي يصل بها المرء إلى حالة الكمال في النفس. أولى هذه الدرجات هي الإنسانية. هناك عشرة آلاف نور، لا يدركها إلا من يستطيع الوصول إليها: لونها باهت. يمتزج بعضها ببعض... وللوصول إلى الثانية، يجب تقديس القلب. ثم يكتشف المرء عشرة آلاف نور آخر متأصلة في هذه الدرجة الثانية، وهي درجة النشوة العاطفية؛ لونها أزرق فاتح... نصل إلى الدرجة الثالثة، وهي نشوة القلب. هنا يرى المرء الجحيم وصفاته، بالإضافة إلى عشرة آلاف نور آخر لونه أحمر كالذي ينتج عن اللهب النقي... هذه هي الدرجة التي يمكن للمرء عندها أن يرى الجنّ وجميع صفاتهم، لأن القلب يستطيع أن يتمتع بسبع حالات روحية لا يصل إليها إلا بعض المنتسبين .

"ثم نرتقي بعد ذلك إلى درجة أخرى، فنرى عشرة آلاف نور جديد، ملازمة لحالة نشوة النفس غير المادية. وهذه الأنوار ذات لون أصفر شديد الصُّفرة. يمكن رؤية أرواح الأنبياء والقديسين .

"الدرجة الخامسة هي درجة النشوة الغامضة. هنا نتأمل الملائكة وعشرة آلاف نور أبيض لامع آخر .

"السادسة هي نشوة الهوس .

هنا نتمتع أيضًا بعشرة آلاف نور آخر لونه لون المرايا الصافية. عندما نصل إلى هذه النقطة، نشعر بنشوة لذيذة للروح التي اتخذت اسم الخضر والتي هي مبدأ الحياة الروحية. عندها فقط نرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. "وأخيرًا، نصل إلى آخر عشرة آلاف نور خفيّ بوصولنا إلى هذه الدرجة السابعة، وهي الطوبى. هذه الأنوار هي أنوار خضراء وبيضاء، لكنها تخضع لتحولات متتالية: وهكذا تمر بلون الأحجار الكريمة لتأخذ بعد ذلك لونًا لا يشبهه أي لون آخر، لا شبيه له، لا وجود له في أي مكان، بل هو منتشر في كل الكون... بمجرد أن تكون في هذه الحالة، تنكشف صفات الله... لا يبدو أنك لم تعد تنتمي إلى هذا العالم. الأشياء الدنيوية تختفي بالنسبة لك ."

أليست هذه هي قلاع السماء السبعة للقديسة تيريزا والألوان السبعة التي تقابل درجات النشوة السبع؟ ولتحقيق هذه الحالة من الذعر، إليك الإجراء الخاص الذي تستخدمه الخلواتية: "تجلس واضعاً رجليك متشابكة وتردد لفترة من الوقت: "لا إله إلا الله"، واضعاً فمك بالتناوب على كتفك الأيمن وأمام قلبك وتحت صدرك الأيسر.

ثم يتلى الدعاء الذي يتألف من ذكر أسماء الله الحسنى الدالة على عظمته وقدرته مقتبساً العشرة التالية فقط، بالترتيب الذي وضعت فيه: "هو، العادل، الحي، الحيّ، الذي لا يقاوم، المعطي بامتياز، الرازق بامتياز، الذي يفتح قلوب القساة للحق، الفريد، الأزلي، الثابت: هو، العادل، الحيّ، الحيّ، الذي لا يقاوم، المعطي بامتياز، الرازق بامتياز، الذي يفتح قلوب القساة للحق، الفريد، الأزلي، الثابت ."

بعد كل تضرع من التضرعات، يجب على الأتباع أن يتلوا صلوات معينة مائة مرة متتالية أو أكثر .

يشكلون أنفسهم في دائرة لتلاوة صلواتهم الخاصة. يضع الشخص الذي يتلو هذه الصلوات، وهو يقول هو، رأسه إلى الأمام في منتصف الدائرة، ويميلها إلى اليمين، ثم يحركها إلى الخلف، على اليسار، نحو الجزء الخارجي. ويبدأ

واحد منهم فقط بقول كلمة هو، ثم يبدأ الآخرون جميعًا في جوقة يحركون الرأس إلى اليمين ثم إلى اليسار .

قارنوا هذه الممارسات مع ممارسات الرباعية: "بعد أن يجلسوا وأرجلهم متقاطعة، يلمسون الجزء الخارجي من الجسم.

يلمس طرف القدم اليمنى، ثم الشريان الرئيسي المسمى الكيس الذي يمتد حول الأحشاء؛ ويضع اليد المفتوحة مفرجة الأصابع على الركبة، ثم يضعها مفتوحة الأصابع على الركبة، ويجعل وجهه نحو الكتف الأيمن قائلاً ها ثم نحو الكتف الأيسر قائلاً هو، ثم يخفضها قائلاً هو، ثم يبدأ من جديد. وَيَنْبَغِي لِقَائِلِهَا أَنْ يَقِفَ عَلَى أَوَّلِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ بِقَدْرِ مَا تَسْمَحُ بِهِ نَفْسُهُ، ثُمَّ إِذَا طَهَّرَ نَفْسَهُ يُلِحُّ بِالِاسْمِ الْأَوَّلِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ بِقَدْرِ مَا تَتَعَرَّضُ نَفْسُهُ لِلذَّمِّ، ثُمَّ يَنْطِقُ بِاسْمِ حَوْ إِذَا كَانَت النَّفْسُ مُتَهَيِّئَة لِلطَّاعَةِ، ثُمَّ إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ دَرَجَةَ الْكَمَالِ الْمَطْلُوبَةِ يَقُولُ الِاسْمَ الْأَخِيرَ حَيْ ."

هذه الصلوات التي تهدف إلى تحقيق فناء فردية الإنسان واستغراقه في ذات الله (أي الحالة التي تؤدي إلى التأمل في الله بصفاته)، تسمى أورادًا موصوفة .

ولكن من بين جميع الأخويات الجزائرية، لا شك أن الأخوية العيساوية هي التي تجذب أكثر فضول الأجانب. نحن نعلم الممارسات المروعة لهؤلاء المشعوذين الهستيريين، الذين بعد أن يدربون أنفسهم على النشوة بتشكيل نوع من السلسلة المغناطيسية وتلاوة صلواتهم، يأكلون أوراق الصبار الشائكة والمسامير والزجاج المسحوق والعقارب والثعابين. وغالبًا ما يلتهم هؤلاء المجانين خروفًا حيًا وصوفًا وجلدًا ولحمًا دمويًا، ولا يتركون سوى بضعة عظام على الأرض. ويغرسون مسامير حديدية في خدودهم أو بطونهم، وبعد موتهم، عندما يتم تشريح جثثهم، يتم العثور على أجسام من جميع الأنواع مغروسة في جدران المعدة .

حسناً، نجد في نصوص العيساوية أكثر الأدعية شعرية وأكثر التعاليم شعرية من بين جميع الفرق الإسلامية .

يقول الرائد رين، وأقتبس هنا بعض الجمل: "قال النبي ذات يوم لأبي ذر الغفاري: "يا أبا ذر ضحك الفقراء عبادة، ولعبهم تسبيح الله، ونومهم صدقة، ونشاطهم تسبيح الله، ونومهم صدقة ."

ومضى الشيخ يقول: "الصلاة والصيام في الخلوة وليس في قلبك شفقة على قلبك يسمى نفاقاً على الصراط المستقيم .

"المحبة هي أعلى درجات الكمال. من لا يحب لم يبلغ شيئاً من الكمال. وهناك أربعة أنواع من المحبة: محبة العقل، ومحبة القلب، ومحبة الروح، ومحبة الباطن، ومحبة السر ."...

من عرّف الحبّ بطريقة أكثر اكتمالاً ودقّة وجمالاً؟

يمكن أن تتعدد الاقتباسات إلى ما لا نهاية .

ولكن إلى جانب هذه الطوائف الصوفية التي تنتمي إلى الطقوس الإسلامية الأرثوذكسية العظيمة، هناك طائفة منشقة هي الإباضية أو بني مزاب التي لها بعض الخصائص الغريبة للغاية .

يعيش بنو مزاب جنوب ممتلكاتنا الجزائرية، في الجزء الأكثر قحولة من الصحراء، في بلد صغير يسمى المزاب، وقد جعلوه خصباً بجهود جبارة. إن المبادئ الحكومية للاشتراكية، إلى جانب تنظيم الكنيسة المشيخية في اسكتلندا، نجدها بدهشة في جمهورية صغيرة هذه التي ينتمي إليها هؤلاء المتزمتون من المسلمين. فأخلاقهم قاسية وغير متسامحة وغير مرنة. إنهم يمقتون سفك الدماء ولا يعترفون به إلا دفاعاً عن العقيدة. ونصف الأفعال في الحياة، سواء أكان ذلك عن طريق الخطأ أم عن عمد، أو ملامسة يد امرأة

أو شيء رطب أو قذر أو محرم، هي جرائم خطيرة تستوجب وضوءًا خاصًا ومطولًا .

والعزوبة التي تؤدي إلى الفسق والفجور والغضب والغناء والموسيقى والقمار والرقص وجميع أشكال الترف والتدخين وشرب القهوة في مكان عام من الكبائر التي إذا أصر عليها أدت إلى الكفر الموبق المعروف بالتبري .

وخلافاً لعقيدة معظم الطوائف الإسلامية التي تعلن أن ممارسات التقوى والصلوات والتعظيم الصوفي كافية لخلاص المؤمنين مهما كانت أعمالهم، فإن الإباضية يعترفون بأن خلاص الإنسان الأبدي يعتمد على نقاوة حياته. فهم يبالغون في مراعاة تعاليم القرآن، ويعاملون الدراويش والفقراء على أنهم زنادقة، ولا يؤمنون بأن شفاعة الأنبياء والأولياء الذين يقدسون ذكراهم مع ذلك صالحة أمام الله السيد العادل الذي لا يعجزه شيء. إنهم ينكرون الملهمين والمستنيرين، ولا يعترفون حتى بحق الإمام في منح العفو لأخيه الإنسان، لأن الله وحده هو الذي يقدر مدى الأخطاء وقيمة التوبة .

والإباضية هم الشيعة المنشقون، وهم ينتمون إلى أقدم فرقة في الإسلام وينحدرون من قتلة علي بن أبي طالب صهر النبي صلى الله عليه وسلم .

ولكن يبدو أن أكثر الطرق التي لها أتباع في تونس هي في الطليعة إلى جانب العيساوية والتيجانية والقدرية، وهذه الأخيرة أسسها عبد القادر الجيلاني، أقدس رجل في الإسلام بعد محمد .

أما زاويتا هاتين المرابطتين اللتان نزورهما بعد زاوية السيد الصاحب فهما بعيدتان عن بلوغ أناقة وجمال الأثرين اللذين شاهدناهما أولاً.

16 ديسمبر :

عند مغادرة القيروان باتجاه سوسة، يزداد انطباع الحزن في المدينة المقدسة أكثر فأكثر .

فبعد المقابر الطويلة، والحقول الشاسعة من الحجارة، هناك تلال من القمامة المكونة من مخلفات المدينة المتراكمة على مدى قرون؛ ثم هناك السهل المستنقعي مرة أخرى، حيث نسير على أصداف السلاحف الصغيرة، ثم مرة أخرى المستنقع الذي ترعى فيه الإبل. ومن خلفنا ترتفع المدينة بقبابها ومساجدها ومآذنها في هذه العزلة القاتمة كسراب الصحراء، ثم تتلاشى تدريجياً وتختفي .

بعد عدة ساعات من السير، تكون محطتنا الأولى بالقرب من القبة بين مجموعة من أشجار الزيتون. نحن في سيدي الهاني، ولم يسبق لي أن رأيت الشمس تحوّل قبة بيضاء إلى أعجوبة لونية أكثر دهشة من هذه الأعجوبة .

هل هي بيضاء؟ - نعم، بيضاء إلى درجة أن تعميك! ومع ذلك يتكسر الضوء بشكل غريب على هذه البيضة الكبيرة بحيث يمكنك أن تتبين أرضاً خرافية من الظلال الغامضة التي تبدو وكأنها مستحضرة لا ظاهرة، وهمية لا حقيقية، وهي في غاية الدقة والرقة وغارقة في هذا البياض الثلجي بحيث لا تظهر مباشرة بل بعد انبهار النظرة الأولى ودهشة اللمحة الأولى. كثيرة جداً، ومتنوعة جداً، وقوية جداً ومع ذلك تكاد تكون غير مرئية! كلما نظرت أكثر، كلما ازدادت بروزاً. تتدفق موجات من الذهب فوق هذه الخطوط، تنطفئ سراً في حمام أرجواني خفيف كالضباب، تتقاطع في بعض الأماكن بخطوط مزرقة. الظل الساكن لغصن ربما رمادي، ربما أخضر، ربما أصفر، لا أدري. تحت ملجأ الكورنيش، يبدو لي الجدار في الأسفل بنفسجياً: وأعتقد أن الهواء بنفسجي حول هذه القبة العمياء التي تبدو الآن ورديّة تقريباً، نعم، عندما تتأملها كثيراً، عندما يمزج تعب إشعاعها كل هذه الألوان الدقيقة والصفاء بحيث تفزع العينين .

والظل، ظل هذه القبة على هذه الأرضية، ظل هذه القبة على هذه الأرضية، أي ظل هو؟ من سيعرف، من سيظهره، من سيرسمه ؟ كم من السنين سنضطر إلى أن نغمس عيوننا وأفكارنا في هذه الألوان المراوغة الجديدة جداً على أعضائنا المدربة على رؤية جو أوربا وآثارها وانعكاساتها، قبل أن نفهمها ونميزها ونعبر عنها إلى درجة تعطي الناظرين إلى اللوحات التي ستثبتها فرشاة فنان انفعال الحقيقة الكامل؟

ندخل الآن منطقة أقل قحلاً، حيث تنمو أشجار الزيتون. في موردين، بجانب بئر، تضحك فتاة جميلة وتكشف عن أسنانها عندما ترانا نمر، وبعد ذلك بقليل، نمر على رجل أنيق من الطبقة الوسطى من سوسة عائد إلى المدينة على حماره ويتبعه زنجي يحمل بندقيته. ربما يكون قد زار للتو بستان الزيتون أو مزرعة العنب. في الممر الضيق بين الأشجار توجد مائدة فاتنة. الرجل شاب يافع، يرتدي سترة خضراء وصدرية وردية اللون، مخبأة جزئياً تحت برنس حريري ملفوف على خاصرته وكتفيه. وهو جالس كالمرأة على حمارها الذي يهرول، وهو ينقر جانب الحمار بساقيه اللتين تتشكلان تحت جوارب ناصعة البياض، بينما يمسك بقدميه، بطريقة ما، حذائين عاليين مطليان بالورنيش لا يلتصقان بكعبيه .

والزنجي الصغير، الذي يرتدي ثياباً حمراء بالكامل، يركض خلف حمار سيده، وبندقيته معلقة على كتفه، في ليونة جامحة .

ها هي سوسة .

لكنني رأيت تلك المدينة! نعم، نعم، لقد رأيت هذه الرؤيا المضيئة ذات مرة، في صغري، في المدرسة، عندما كنت أتعلم عن الحروب الصليبية في كتاب "تاريخ فرنسا" لبوريه .

لقد عرفتها منذ زمن بعيد! إنه مليء بالعربان، خلف ذلك السور الطويل المسنم، المرتفع جداً، الرفيع جداً، بأبراجه البعيدة والعريضة، وأبوابه المستديرة، والرجال المعممين الذين يطوفون عند سفحه. أوه، هذا السور يشبه تماماً السور الذي في الكتاب المصور، منتظم ونظيف جداً لدرجة أنه يبدو وكأنه قطع من الورق المقوى. كم هو جميل وواضح ومبهج! علينا أن نقوم برحلة طويلة فقط لرؤية سوسة .

الله يحب السور الذي عليك أن تتبعه على طول الطريق إلى البحر، لأن السيارات كانت لا تستطيع الدخول إلى الشوارع الضيقة المتقلبة في هذه المدينة من الأيام الماضية.

ويمتد السور ويمضي، على طول الطريق إلى الشاطئ، وهو مرصع بأبراجها المربعة، ثم ينحني مستديراً، ويتبع الشاطئ، ثم يستدير مرة أخرى، ويصعد إلى أعلى ويواصل دورته، دون أن يغير ولو لمرة واحدة، لبضعة أمتار فقط، مظهره الجميل كسور عربي. ومن دون أن ينتهي، يبدأ من جديد، مثل مسبحة، كل حبة منها عبارة عن حبة من السور وكل دزينة منها عبارة عن برج، ويحيط في دائرته المبهرة كما لو كان تاجاً من الورق الأبيض، المدينة المحشورة في أحضانه، وبيوتها الجصية المتدرجة بين السور السفلي المغمور بالبحر والسور العلوي الذي يخيّم عليه ظل السماء .

وبعد أن تجولنا في المدينة، وهي متشابكة من الأزقة المدهشة، وقد بقي من النهار ساعة، ذهبنا لنزور، على بعد عشر دقائق من البوابات، الحفريات التي يقوم بها الضباط في موقع مقبرة حضرموت. ذهبنا. وقد اكتشفت أقبية شاسعة تحتوي على ما يصل إلى عشرين قبراً وتحتفظ بآثار رسوم جدارية. وهذه الحفريات هي من عمل الضباط الذين أصبحوا علماء آثار لا يلينون في

هذه البلاد، والذين كانوا سيقدمون لهذا العلم خدمة جليلة لو لم توقف إدارة الفنون الجميلة حماستهم بتدابير مزعجة .

وفي سنة 1860، ظهرت في هذه المقبرة نفسها فسيفساء غريبة جداً تصور متاهة كريت وفي وسطها المينوتور وقرب مدخلها قارب يحمل ثيسيوس وأريادن وابنها. أراد الباي أن ينقل هذه القطعة الرائعة إلى متحفه، لكنها دُمرت بالكامل في الطريق .

وقد تفضّل السيد لارماند، وهو رسام في قسم الأحواض والقاعات بتقديم صورة فوتوغرافية لها. هناك أربعة منها فقط، تم رسمها مؤخراً جداً. لا أعتقد أنه تم استنساخ أي منها حتى الآن .

عدنا إلى سوسة عند الغروب لنتناول العشاء في منزل المراقب المدني الفرنسي، وهو من أدرى الرجال وأمتعهم في الاستماع إلى الحديث عن عادات هذه البلاد وتقاليدها .

من منزله تستطيع أن ترى البلدة كلها، تلك السلسلة من السقوف المربعة المبيضة حيث تتراكض القطط السود، وحيث يرتفع أحياناً شبح كائن مكسو

بقماش شاحب أو ملون. ومن مكان إلى مكان، كانت نخلة عظيمة تطل برأسها بين البيوت وتنشر باقة أغصانها الخضراء فوق بياضها البسيط .

ثم إذا ما أشرق القمر صار زبداً فضيّاً يتدحرج على البحر، وهو حلم شاعر عجيب يتحقق، ومظهر غير محتمل لمدينة رائعة يرتفع منها بريق في السماء .

ثم تجولنا في الشوارع لفترة طويلة. أغرانا خليج مقهى عربي. دخلنا. كان المكان مليئاً بالرجال الجالسين أو الجاثمين إما على الأرض أو على الألواح الأرضية المفروشة حول قاص عربي. وهو رجل عجوز بدين ذو عينين خبيثتين، يتحدث بمحاكاة مضحكة إلى درجة أنها كافية للتسلية. وهو يروي مهزلة، وهي قصة دجال أراد أن ينتحل صفة المرابط، ولكن الإمام كشف أمره .

فيفرح مستمعوه السذج ويتابعون القصة بانتباه شديد، ولا يقطعها إلا نوبات من الضحك. ثم ننطلق مرة أخرى، غير قادرين في هذه الليلة المبهرة على اتخاذ قرار النوم.

والآن، في شارع ضيق، أتوقف أمام منزل شرقي جميل يظهر من بابه المفتوح درج كبير مستقيم، كله مزين بالأواني الفخارية ومضاء من أعلاه إلى أسفله

بنور غير مرئي، رماد، غبار من الضوء سقط من مكان لا يعرفه أحد. تحت هذا الوهج الذي لا يمكن التعبير عنه، كل درجة مرصوفة بالمينا تنتظر شخصًا ما، ربما عجوز مسلم ممتلئ الجسم، لكنني أعتقد أنها تنادي قدم عاشق .

لم يسبق لي أن خمنت أو رأيت أو فهمت أو أحسست بالانتظار أفضل مما كنت أمام هذا الباب المفتوح وهذا الدرج الفارغ حيث مصباح غير مرئي يراقب. وفي الخارج، على الجدار المضاء بالقمر، تتدلى واحدة من تلك الشرفات الكبيرة المغلقة التي يسمونها البرمقلى. وفي وسطها فتحتان مظلمتان في الوسط، خلف المشربيات الحديدية المنحنية الغنية. هل جولييت العربية التي يرتجف قلبها هناك، تراقبنا وتسمعنا وتكرهنا؟ نعم، ربما؟ ولكن رغبتها الحسية ليست هي تلك التي، في بلادنا، التي من شأنها أن تصل إلى النجوم في ليالٍ كهذه. في هذه الأرض الدافئة الهادئة الآسرة إلى درجة أن أسطورة هؤلاء السكان ولدت في جزيرة جربة، الهواء ألذ من أي مكان آخر، والشمس أدفأ، والنهار أصفى، ولكن القلب لا يعرف كيف يحب. النساء الجميلات والمتحمسات يجهلن حناننا .

وتبقى أرواحهن البسيطة غريبة عن العواطف الوجدانية، وقبلاتهن، كما يقال، لا تلد الأحلام.

تم بحمد الله.